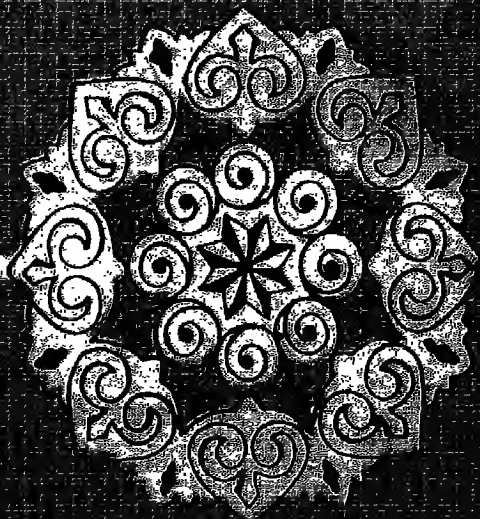


دراسات الإسلام



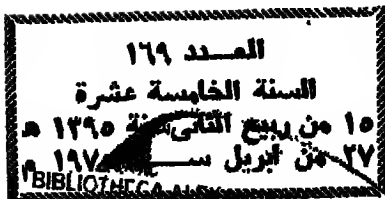
دراسات في الإسلام

يصدرها

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

تيارات المنهجية في التفكير الديني المعاصر

يلدكتور على العتمارى



يشرف على إصدارها
محمّد توفيق عوليفة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى :

« ... فمن جاءه موعظة من ربه
فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله
ومن عاد فأولئك أصحاب النار
هم فيها خالدون »
(قرآن كريم)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف
المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان
الى يوم الدين •

أما بعد •
فهذه كلمات أدى اليها النظر في بعض ما نشر من أبحاث
وآراء ، بدا لي أن فيها انحرافا عن الجادة ، وبعدا عن النصوص
للصريحة في الاسلام •

وقد خفت أن تقع هذه المباحث وهذه الآراء الى من لا بصر
له بأصول الاسلام وفروعه ، فيضل بها ، أو على الأقل
يتسأل الشك الى عقيدته ، وتتطرق الظنون الى معارفه الاسلامية .
ومما يؤسف له أشد الأسف أن بعض هذه الكتب التي
أبنت عما فيها من انحراف قد دخلت دورا للعلم كثيرة ، حتى
لقد خدعت في هذه الكتب بعض الجامعات الاسلامية التي
تتحرى كل التحري فيما تضعه بين أيدي طلابها ، ولم تدربها
فيها من زينغ وأباطيل •

وقد حدثت مرة بعض القائمين على أمر جامعة من هذه
الجامعات في شأن كتاب من هذه الكتب ، وأشارت له الى بعض

ما فيه فارتاع ، ثم ألقى اللوم على الحكومات الاسلامية التي تسمح بنشر مثل هذه الكتب ، وعلى الذين يعنون بالدراسات الاسلامية حيث لم يحذروا منها ، وبينوا ما فيها من أخطاء دينية أو علمية ، فقلت له : فانتك أن تلوم القائمين على أمور دور العلم اذ لم ينظروا في كل كتاب قبل أن يقدموه لطلابهم •

أما عن الحكومات الاسلامية فانا معك في أنها مقصرة في هذا الشأن ، وأذكر أن بعض الهيئات الاسلامية حاولت مرة مصادرة كتاب من هذه الكتب ، ولكن كان للمؤلف جاء عند ذوى السلطان استطاع به أن يرفع الأيدي عنه ، وأن هذا الكتاب انتشر في جميع الأقطار الاسلامية حتى لقد ظهر في مكة المكرمة والمدينة المنورة قبل ظهوره في القاهرة التي طبع فيها •

وأما عن الكتاب الذين يعنون بالدراسات الاسلامية فأنبئك أنى كتبت عن هذا الكتاب بحثا مطولا في مجلة من أكثر المجالات الاسلامية ذيوعا ، ولكتكم لا تقرعون هذه المجالات • بل يكفى — فيما أظن — أن يحمل الكتاب اسم القرآن الكريم ، أو اسم محمد صلى الله عليه وسلم ، لتقبلوا عليه ، وتقدموه لطلابكم •

* * *

ولم أعن في هذه النظرات بالحكم على عقيدة صاحب فكرة أو رأى ، فهذا لايعنينى بقدر مايعنينى بيان ما في فكرته أو رأيه من انحراف ، أما دخيلة نفسه فأمرها الى ربه ، على أن هذا الحكم اذا كان يعنى بعض القارئین — فالسبيل اليه ميسرة مما يقرؤه في هذه النظرات ، ففى هذه الأفكار ما ينكر ما علم من الدين بالضرورة ، وفيها ما هو انكار صريح لبعض آى

القرآن الكريم ، ونفيها ما هو مصادرة للمشهور من آراء العلماء التي بنيت على أدلة قوية ، وبراهين واضحة .
وليس يعني — أيضا — أن يكون هذا أو بعضه قد صدر عن عمد أو عن غير عمد ، عن سوء نية ، أو عن جهل وغفلة .

وقد كنت أتحدث مع أحد علمائنا في شأن أحد هؤلاء الذين انحرغوا فيما كتبوا ، ثم استقاموا على الطريق . فقلت : دعوا هذا الرجل فإنه يؤدي الآن أعظم خدمة للإسلام بما يكتبه من أبحاث وما يذيعه من أحاديث كلها تحبب الشباب في الإسلام — فقلت له : انه — ولا شك — مشكور على صنيعه هذا . ولكن ألا ترى معي أن ظهوره في مظهر المؤمن العميق الإيمان يجعل نشر الرد على آرائه الفاسدة أوجب علينا ، وأكثر إلزاما لنا ، ذلك أنه حين كان متهما في دينه كان الناس يأخذون آراءه بشيء كثير من الحيطة والحذر ، أما الآن فالذين يقرءون له ، ويستمعون إليه ولم يكن لهم علم بماضيه يخدعون بكل ما يطالعهم من آرائه ، ويأخذونها مأخذ القضايا المسلمة .

ثم هناك أمر على جانب كبير من الأهمية . ذلك أن أول واجب على من اهتدى إلى الطريق القويم أن يعلن على الملأ اعترافه بخطئه فيما أخطأ فيه ولست أفهم لماذا يصر هؤلاء ، على بقاء آرائهم الفاسدة متداولة بين الناس دون أن يعلنوا رجوعهم عنها ، ماداموا صادقين في سلوكهم الجديد ، وإذا كان العلماء قد بينوا بالأدلة الحاسمة من كتاب الله ، وسنة رسوله ، خطأ رأي من الآراء ، ويعدده عن حقائق الدين ، فما الذي يمنع

صاحبه - ان صدقت توبته - أن يثوب الى الحق ، وأن يرجع
عما أذاع من باطل ، وأن يقول للناس بملء فيه • لقد أخطأت ؟

وآخر ، ما أفكر فيه من نشر هذه الكلمات هو التشهير بأحد ،
أو الاساءة الى كتاب أو مفكر ، لأن الذي يهمنى هو تبصير
القارئ بما فى هذه الكتب ، وهذه الأبحاث من بعد عن حقائق
الاسلام ، أو تنكر لآدابه ، أو اساءة الى رجاله •

والله أسأل أن يبلغ بهذه الكلمات ما قصدته من نشرها •

انه سميع مجيب الدعاء •

المؤلف

شَعَائِرُ اللَّهِ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ

في أسبوع واحد قرأت مقالين في موضعين مختلفين من صحفنا ومجلاتنا ، وكان المقالان عن (الحج) وكلا الكاتبين أدى فريضة الحج هذا العام ، وأخذ كل منهما يتحدث عن الآثار التي تركتها مشاهدة الأماكن المقدسة في نفسيهما وعما يدور بخاطر كل منهما مما يتعلق بمناسك الحج وغيرها من شعائر الاسلام . وقد ألمنى أشد الألم أن كلا من الكاتبين تعرض لمسائل دينية ، ولمسها لمسا عنيفا دون أن يكلف نفسه الرجوع الى المصادر الأساسية ليتزود منها ما يعينه على التحدث في أمور خطيرة ، بل ان أحدهما لم يكتب الآيات القرآنية التي جاءت في مقاله كتابة صحيحة ، ومع ذلك سمح لنفسه بأن يصف بعض ما ثبت في السنة الصحيحة بأنه (أساطير) .

وكان السر في اندفاع الكاتبين الى ما تناولا كما قال أحدهما - هو أن (الغموض ، وعدم الاقتناع يحيط بكثير من المناسك ، مناسك الحج طبعا ، حتى تبدو كأنها طقوس بوذية ، يلزمها في عصرنا الحالي الاقتناع ، والتحليل العلمي والمنطقي الذي قمام على أساسه الدين الاسلامي كله) . وعلى ذلك فهو يرى أن من الواجب على العلماء أن يتكلموا ، ويوضحوا

الغموض بأسلوب منطوق مقنع ، حتى لا يكون الحج — كما قال الكاتب أيضا — مناسك آلية يؤديها الفرد ، ويعود يحمل لقب (حاج) دون أن تؤثر في معنوياته •

والشعيرة الأولى التي أثارت الكاتبين هي الذبائح التي يقدمها الحاج شكرا لله على ما وفق من أداء الفريضة ، أو جبرا لما فات من أعمال واجبة ، حتى يكون الحج تاما كاملا • ويحدثنا أحدهما بأسلوب لا يخلو من سخرية فيقول عن (رجم الشياطين) أن العلماء يؤكدون أنه من المناسك ، وأن الذي لا يفعله عليه أن يزيد اللحوم المتعفنة بذبيحة جديدة •

أما الآخر فيسهب في هذا النسك ، ولا ينسى الكلام عن الحالة الاقتصادية التي تحتم أن يقتصد الحاج في الذبائح ، أو أن يوضع بديل من هذه الذبائح • ولنترك أحدهما يحدثنا كما نقل عنه رئيس تحرير إحدى الصحف فيقول : وما زلت أذكر كيف صحونا فجر ذات يوم لنؤدي فريضة الصلاة بالحرم المكي ، وبعد أن عدت إلى الفندق مع واحد ممن كان يحجبنا ، قابلنا عند الباب صديقان يتأهبان للذهاب إلى المذبح لاختيار الهدى لفنئدي به تمتعنا أي التحلل بعد العمرة بكل تقاضيلها : من طواف حول الكعبة ، إلى السعى بين الصفا والمروة ، وكان علينا أن نشترى شاة لكل منا ، وهنا حالت الأزمة المالية القاسية التي كنا نقاسي منها دون ذلك ، فاشتري سبعة منا في عجل بلغ ثمنه ثمانية عشر جنيها ، وتنفسنا الصعداء لهذا الحل السعيد ، فوقف رائدنا يساوم ويجادل محاولا الحصول على تنزيل آخر

ولما لم يوفق سار بنا في طابور جنازى وراء العجل المسكين
الذى كان ينظر الى الأرض بعناد ، وخبث ، محاولا غرس
خوافره في طينها المزوج بدماء زملائه الذين سبقوه الى تمس
المصير ، ولح ضعفى نحوه فخيّل الى أنه ثبت نظراته على
معتبا وأنا لا أملك من أمرى شيئا ، فقائدنا طالما أصدر أحكاما
بالاعدام على بنى البشر ، فما أسهل عليه أن يقود عجلا الى
الجلاد ، وزملائى يقبلون أيديهم ظاهرا وباطنا ويهتفون من
أعماقهم ، بينما تقطع سكنى الجلاد رقبة العجل قائلين :
(الحمد لله . الحمد لله . لقد صحت حجتنا) وأنا أقول لنفسي ،
وأنا أتأمل بركة الدماء من حولى : (ربى ، أما لهذه المآسى
من آخر ؟ وكيف يوضع حد لأقسى عملية لآبادة الثروة الحيوانية
وهل تصل هذه اللحوم الى الفقراء حقا ، أم تترك حتى ينتابها
العفن ؟)

وانما نقلت هذه الفقرات كاملة ليتبين القارئ ما يشيع فيها
من تبرم وضيق وسخرية بنسك هو من أعظم مناسك الحج ،
فقد كان الكاتب ورفاقه في ضيق شديد حين هموا بشراء
النسك ، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاعت عليهم
أنفسهم : لأن ثمنه فوق ما يحملون من نقود ، فلما وفقوا
لشراء عجل بثمانية عشر جنيها تنفسوا الصعداء هكذا ، كأن
الكابوس الذى كان يجثم على صدورهم قد زال ، أو لعله قد
خف ، لأن ثمن العجل لا يزال بالطبع - على ما يستفاد من
عبارات الكاتب يحز في نفوسهم ، ثم هذا التصوير الدرامى
لعملية (الاعدام) التى يساق اليها العجل .

أما سار الكاتب هو ورفاقه في طابور جنازى ؟ أما ساقوا

العجل إلى الجلاب ؟ أى إلى ساحة الأعدام ، أما ألهم واستنزف دموعهم هذا العجل المسكين ، وهو يقدم رجلا ، ويؤخر أخرى في طريقه إلى مصيره المحتوم ؟

أن الذى يقرأ هذا التصوير يظن أن هذا الكاتب لم يعيش في بلد تذبح فيه العجول ، وأنه رجل نباتى لا يتغذى بشيء من لحوم الحيوان ، والطيور ، وأن أبا العلاء المعرى بعث من جديد في شخص هذا الكاتب ، ولكنه لم يظهر في كل بلد حل فيه الكاتب وإنما ظهر في (منى) فقط حيث تذبح عجول القرية إلى الله تعالى ، أما المجازر التى تنتشر في كل البلاد ، والتى رأى الكاتب الكثير منها طبعا ، فالعجول فيها ليست مساكين ، والناس لا يسيرون خلفها في طوابير جنازية بل يسوقونها وهم فرحون مستبشرون لأنهم سيبيعون من وراء ذبحها مالا ، ولأنهم سيأكلون منها لحما أحله الله .

وخاتمة المطاف عند الكاتب أن هذه الشعيرة من شعائر الله مأساة من المآسى ، وهو يسأل الله تعالى ، ويدعوه ، ويناجيه أن يجعل لها آخر ، وأن عملية إبادة الثروة الحيوانية الجائزة التى رآها يجب — في رأيه طبعا — أن يوضع لها حد ، لأن الثروة الحيوانية لا تتعرض لأى نوع من أنواع الإبادة في مكان آخر غير الحرم ، فالناس يحجون من قديم الزمان ، ويذبحون القرابين ولم يظهر في عام من الأعوام أزمة في اللحوم حتى في مكة نفسها بعد موسم الحج ، وأكثر الذبائح تؤكل لحومها ، ويقل منها ما يترك حتى يتعفن ، ولو كان صحيحا أن أكثر هذه الذبائح يتعفن لكان المنطق يقتضى أن يتجه الكاتب — كما اتجه غيره — إلى اقتراح حل لهذه المشكلة ، أما أن يسوق الحديث

هذا المساق الذى تشيع فيه السخرية والتبرم بهذه الشعيرة فهو ما يتنافى مع أبسط مبادئ الاخلاص لله فى أداء ركن عظيم من أركان الاسلام .

ان الله تعالى يقول فى سورة الحج : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ، لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

وقد فسر بعض العلماء (الشعائر) فى قوله تعالى : « ذلك » ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع الى أجل مسمى ، ثم محلها الى البيت العتيق » ، فسرها بالبدن التى تقدم قرابين شكرًا لله تعالى .

والمقامل فى هذه الآيات يجد كلمة (التقوى) مقترنة بكل منها ، وهذا دليل على أن امتثال أوامر الله ، وأداء شعائره على أكمل وجه ناشئ من الاخلاص لله ، وخوف التفريط فى جانبه ، والقضية ليست قضية منطقية ، وانما هى (من تقوى القلوب) تلك القلوب التى تشعّر بجلال الله ، وعظمته ، وتحسن بالوهيته ، وربوبيته تتوجه مخلصه الى أداء شعائره ، وتجد من تمام أدائها أن تختار أحسن ما يقدم ، وألا تساوم فيها ، أو تجادل فى ثمنها ، فان الذى يقدم لعزیز عليه هدية لا يغلبه الثمن مهما بلغ ، ولا يظل يتردد على حوانيت التجار ليختار منها الأدون والأرخص ولكن ليختار الأعلى والأعلى ، وهذا شئ تدركه القلوب المحبة ، أوضح أدراك وأتمه ، ولن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم .

ومهما قال العلماء من تعليقات مقبولة لهذه المناسك فمرجعها جميعا الى (تقوى القلوب) في امثالها لأمر الله ، ذلك أن بالعقل البشرى لا يمكن أن يصل - بصفة قاطعة - الى سر بعض التكاليف الدينية ، فهو - مثلا - في أبرز ركن من أركان الاسلام ، وهو الصلاة يقف حائرا أمام تفسير عدد الركعات وأمام السر في أن هذا العدد لم يذكر في القرآن مع ماله من مكانة في تكاليف الدين . . وهكذا ، في كثير من مناسك الحج •

وقد أوضح العلماء أسرار الشريعة في كثير من التكاليف ، وبينوا ، ولا يزالون يبينون - في كل مناسبة - حكمة مشروعاتها ، ولكن الشيء الوحيد الذي لا يمكن اغفاله هو احساس القلوب وتقواها ، ومدى تقبلها لأوامر الله ونواهيه •

واذا كانت الأخلاق والفضائل واضحة الأهداف ، فان بعض العبادة لا يظهر فيه غير هدف واحد هو اختيار المؤمنين لمدى امثالهم لأوامر الله ، وان قيل ما قيل في سر مشروعيتها ، وعلى ذلك فلا وجه لما قاله الكاتب الآخر عن (رمى الجمرات) بأنه أمر غامض ، بل انه يجاوز حدود اللياقة والأدب الديني حين يشبه هذه الشعائر بالطقوس البوذية ، وقد يصح قوله أن رمى الجمرات مسألة غير مقنعة للكثير لو كان تفسير هذه التكاليف يرجع الى المنطق وحده ويتحكم فيها العقل دون سواه ولكن كما قلت - المسألة ترجع الى (تقوى القلوب) أما المنطق وأما التفسير العقلي فهما أمر بعد ذلك ، وما لم تستشعر النفوس الخشية من الله ، وما لم يكن فيها ما يحملها - دون اعتراض أو تبرم على امثال أوامر الله - فان منطق العقل لا يغرس الايمان في النفوس •

وليس معنى هذا أن الدين الاسلامى جاء بتكاليف تتناقض والعقل ، ولكن معناه أن العقل اذا لم يتوصل الى الحكمة الحقيقية لبعض التكاليف ، فلا ينبغى أن يحمل ذلك أحدا على أن يرمى هذه التكاليف بمناغاتها للعقل ، وما دام الدين الاسلامى قد ثبت بكل الطرق المقنعة أنه الدين عند الله وما دامت طريقة ثبوت هذه التكاليف صحيحة لا غبار عليها ، فما على المؤمنين بهذا الدين الا الخضوع والامتثال ، والتأدب حين يتحدثون عن هذه التكاليف .

ثم نعود الى أحدهم ونسأله : لماذا كان ضائق الصدر هو وزملاؤه بثمان ما يذبحون ؟ انه لو كلف نفسه سؤال أحد العلماء وقد كانوا بحمد الله كثيرين فى هذا الموسم — لافتاه بأن (الدم) لا يجب الا على القادر .

وفى القرآن الكريم آية صريحة تحكم فى بعض هذه الدماء : وهى قوله تعالى فى سورة البقرة « وأتموا الحج والعمرة لله فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا أمتتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ، ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ، واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » .

وأحب أن ألفت نظر القارئ فى هذه الآية أيضا الى جملة : (واتقوا الله) لاؤكد له أن جميع أعمال الحج مصدرها التقوى ،

والتقوى هي العاصمة من كل شك قد يطوف بالمؤمن فيجيد به عن سواء السبيل في العمل أو في الاعتقاد .
ويؤيد ما قلته قول الله تعالى بعد هذه الآيات : « الحج أشهر معلّمة فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب » .
نعم . التقوى هي الباعثة على كل عمل صالح ، وهي أيضا نتيجة لكل عمل صالح ولكن كثرة دورانها في آيات الحج بدلنا على أن هذه الشعائر يفتقها المتقون ويقدرونها حق قدرها ، والتقوى تعمهم أن يزلوا في فهمها أو في أدائها .

بقى أن هذا الكاتب في لحظة من لحظات الحماس ، والتبرم رمى بعض ما جاءت به السنة الصحيحة بأنه من (الأساطير) ولنتركه يتحدث ، فيقول بعد أن يذكر ما قاسوه من العذاب الشديد في طواف العمرة ، وأن الناس جميعا كانوا سواسية حتى لكأن هذا اليوم يوم الحشر الذي تروى الأساطير أن الشمس سوف تكون غيبة دائية من الرعوس والجو شديد الحرارة حتى ليرتجى الناس أن يقضى بينهم على أى شكل ، فاما الى يمين واما الى يسار ، ونحن لن نتكلف في الرد عليه أكثر من أن نكتب له الحديث الصحيح الذي يروى هذه القضايا التي رماها حضرته بأنها من الأساطير :

(روى المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ، قال سليم بن عامر فوالله ما أدري ما يعنى بالميل أمسافة الأرض ، أم الميل الذى تتكحل به العين ،

قال : نبكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون الى ذعبييه ، ومنهم من يكون الى ركبتيه ، ومنهم من يكون الى حقويه ومنهم من يلجمه العرق الجاما ، قال : وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الى غيه) •

اللفظ فى هذا الحديث للإمام (مسلم) وللبخارى حديث فى معناه ، وكتابا البخارى ومسلم هما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى •

فالأحاديث التى فى هذا المعنى صحيحة ، ثابتة ، وليس لمسلم أن يقول أن ما تضمنته من القضايا هو من رواية الأساطير •

والله يعصمنا من الخطأ والزلل ، ويهديننا الى الفهم الصحيح لأسرار شريعته •

نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ

في احدى المجالات الأدبية كتب أحد الكتاب مقالا عنوانه :
(مصادر القصص القرآني) *

وقد خلاص الكاتب من حديثه الى أمرين :

الأول : أن التوراة والانجيل لم تكونا من مصادر القصص
القرآني *

الثاني : أن القرآن استغل ما في وجدان العرب من ثقافة
كونتها البيئة والحكايات ، والخرافات ، غصور قصصه تصويراً
فنياً رائعاً ، واتخذ من شخصيات أسطورية مشهورة شائعة بين
العرب ومن عقائد خيالية في أذهانهم وسيلة لبث المبادئ
والأهداف

وتحقيقاً لهذا (الكشف) العظيم أنكر الكاتب أن يكون حديث
سيدنا يعقوب مع بنيه حين حضره الموت حقيقة وقعت
بحذافيرها ، وأنكر الحوار الذي وقع بين سيدنا عيسى
والحواريين حين قالوا له : انا مسلمون ، كما أنكر أن ابراهيم

واسماعيل قد بنيا الكعبة ، وتفضل فأنكر وجود الجن ، كما أنكر قصة الهدد مع سيدنا سليمان .

ومع أن الفكرة التي صدر عنها الكاتب امتداد أو تجديد لرأى قديم طلع به على الناس يوما ما طالب من طلاب الجامعة المصرية ، ومع أنه رأى مستورد من الخارج ، وقد لقي ما لقي من تصويب ورد الى الجادة منذ عهد غير بعيد ، مع كل هذا رأيت ألا يمر هذا الاجترار على كتاب الله دون وقفة مع هذا الكاتب حتى يستبين الطريق ان كان يبحث عن الحق ، أو يخجل من نفسه ، ويحطم قلمه ان كان يقول بغير علم .

غفلة الكاتب الكبرى أنه اغتر بمعلوماته الخحلة في اللغة ، ولم يحمل نفسه أى عناء في الرجوع الى معجم من المعاجم ، أو الى كتاب من كتب التفسير ، ولو فعل لانهار الدليل الأول ، والأوحد الذى اعتمد عليه في انكار ما أنكر .

فسيدنا يعقوب لم يسأل بنيه عند موته : ما تعبدون من بعدى ؟ وبنوه لم يجيبوه : نعبد الهك ، واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون ، والكاتب يشك أن يكون هذا الموقف قد حدث بقضه وقضيضه . لماذا ؟ لأن الاسلام لم يكن قد ظهر أيام ابراهيم وأبنائه حتى يوصى به الآباء والأبناء .

وعيسى بن مريم لم يسأل الحواريين : من أنصارى الى الله؟ والحواريون لم يجيبوه : نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . وانما وجد القرآن أن هذا النبي قد دارت أحاديثه على لسان العرب ، وذكر أمية بن أبى الصلت قصته في شعره فلم

لا يلجأ القرآن الى وسيلة أدبية رائعة فيحمل عبسى هذا مبادئ الدعوة الاسلاميه ؟

واذا سألت الكاتب لماذا كل هذا الخبط والخلط ؟ أجابك بأن الاسلام لم يكن ظهر في عهد عيسى ، فلا معنى لأن يقول الحواريون : انا مسلمون ، على الحقيقة . وهكذا فعل الكاتب في كل ما أنكر .

فلو أن الكاتب عرف عن كتب التفسير : أو عن كتب اللغة : أو حتى عن صفار الطلاب في الأزهر أن الاسلام له معنى عام : هو الانقياد والخضوع الى الله ، وله معنى خاص : هو هذا الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . ولو أن الكاتب قرأ في قوله تعالى : (اغفر دين الله بينهم وله أسلم من في السموات والأرض) مجرد قراءة .

ولو أنه عرف أن أصول الأديان كلها واحدة ، وأول هذه الأصول الخضوع لله واسلام الوجوه له ، كما يدل عليه قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

ولو أنه — قبل وبعد — اهتدى الى هذه الآية من كتاب الله : (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما) . لو عرف الكاتب ما المراد بكلمة الاسلام في كل النصوص التي أوردها لاستحيا أن يخط حرفا واحدا من مقاله .

وقد خص الكاتب (الجن) بفيض من علمه الغزير . فالعربي عاش في صحراء رهيبة ، فاعتقد أن هناك (جنا) تملا هذه الصحراء ، لأن الانسان — كما نقل عن المسعودي —

إذا سار في المهامه داخلته الظنون الكاذبة . والأوهام الفاسدة ولذلك — كما قال — كان جزء من ثقافة العرب أدخل في الأساطير . ومن ذلك الهواتف و (الجن) والقرآن — كما قال أيضا — قد تحايل مع وجدان العرب فكان اعجازا منه أن يحمل شخصية (جنية) بعض مبادئ الدعوة فتخيل نفرا من (الجن) وأجزى على ألسنتهم حديثا اسلاميا تضمنته سورة الجن .

والنظام من المعتزلة انكر وجود الجن، ومحمد عبده يفسر الجن بالميكروبات الخفية ، ولكن بالرغم من كل ذلك لا يستطيع هؤلاء أن ينكروا أثر سورة الجن ، وقدرتها على جذب أفئدة العرب . هذا كلامه .

ولا ينسى الكاتب أن يبرز دليله في هذا الموضع أيضا فيذكر ما جاء على لسان الجن في سورتهم (وأنا منا المسلمون) ويكتبها بطريقة توضحها وتميزها عن بقية الكلام حتى بلغت الأنظار الى أنها السر — في موقفه من هؤلاء الجن الذين ألغى وجودهم بجرة قلم .

وليقل النظام ما شاء ، وليفهم الكاتب في كلام الشيخ محمد عبده ما يوافق هواه فالجن خلق من خلق الله ، وأنوف الجاهلين والمعادين راغمة .

وإذا كان الكاتب لا يحفظ القرآن الكريم ، ولم يكلف نفسه الرجوع الى المصحف فأنى أضع تحت عينيه — لا قلبه — بعض الآيات الواضحة الصريحة التي لا تحتل تأويلا ، من ذلك قوله تعالى : « يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصصون عليكم آياتي ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا

شهدنا على أنفسنا ، وغرثهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين^(١) » • « واذا صرغنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم^(٢) » صدق الله العظيم • وكل من يشدو شيئا من العربية يفهم من هذه الآيات وما ماثلا أن الجن موجودون — ان كان يعتقد بأن الله صادق فى حديثه — ومهما أغرب فى تطلب المجازات والاستعارات فلن يسعفه خياله لأن يتوهم أن هذا مجرد تحايل أدبى •

وهل يناديهم القرآن ، ويوبخهم على كفرهم وهل يجيبون بما أجابوا به وهم مجرد خيال ؟ وما وجه الامتنان على النبى بأن الله آمال اليه نفرا من الجن واستمعوا قرآنه ، وآمنوا به اذا كان ذلك مجرد خيال ؟

واذا كان النظام أنكر وجود الجن ، أو هكذا نسب اليه فان آلافا من كبار علماء المسلمين منذ أنزل القرآن الى اليوم لا يداخلهم أى ريب فى وجود الجن ولم يعرف فى القديم أن أحدا أنكر وجودهم غير الزنادقة •

وعلماء المسلمين الفاقهون لكتاب الله ، والعارفون بسنة نبيه لم يختلفوا فى وجودهم ، وانما وقع بينهم بعض الخلاف فى تكليفهم ، قال الامام الرازى فى تفسيره — وهو من أكثر المفسرين تحررا : (أطبق الكل على أن الجن مكلفون ، وأن

(١) سورة الانعام . الآية : ١٢٠ •

(٢) الاحقاف . الآية ٢٩ •

النبي صلى الله عليه وسلم أرسل اليهم والقول بتبعيتهم في التكليف للانس لا دليل عليه) •

وهدهد سليمان له أيضا مع الكاتب قصة ، خلاصتها أن القرآن استغل معرفة العرب بالهدد وما حيك حوله من أساطير جاهلية فجعله ينطق بمبادئ اسلامية والدليل على ذلك — عنده — هو الدليل ، ذلك أن الكتاب الذي جاء به الهدد استفتح — على حد تعبيره — ببسم الله الرحمن الرحيم ، وجاء فيه (ألا تعلوا على وأتوني مسلمين^(١)) وهذه البسمة استفتحت بها السور القرآنية التي نزلت بعد سليمان بقرون •

وهو — كعادته — قد جهل أو تجاهل ما جاء في القرآن الكريم من فضل الله على سليمان وأنه وهبه ملكا لم يهبه لأحد ، ومن ذلك أنه سخر له الشياطين ، وعلمه منطق الطير : (وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون حتى اذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدى^(٢)) •

والله سبحانه يقول في شأن لقمان : (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله^(٣)) ولكن الكاتب يؤكد أن لقمان هذا

(١) النمل . الآية ٣١ •

(٢) النمل : الآيتان ١٦ ، ١٧ •

(٣) سورة لقمان . من الآية ١٢ •

لا وجود له ، بل هو شخصية اسطورية حاك العرب حولها
الحكايات ، فاستغل القرآن ذلك وأنطقه بالوصايا والحكم ،
فأله سبحانه قد أعطى الحكمة لشخص اسطوري — كما يزعم
الكاتب — •

ولعل الخطب في لقمان أهون من الخطب في ابراهيم واسماعيل
فالكاتب يرى أن الحنفاء من العرب أشاعوا فكرتهم عن بناء
ابراهيم واسماعيل الكعبة ، فوجد القرآن في هذا موقفا
خصا — هكذا موقفا خصبا — فأخذ تلك الفكرة ، وكسب
أنصارها الى صفه ثم أوحى اليهم بمبادئ دعوته فقال :
« واذا يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل
منا انك أنت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن
ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مزاكنا وتب علينا انك أنت التواب
الرحيم • • ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك
ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم^(١) »
وليرجع بنا التاريخ الى أوائل هذا القرن حين كتب كاتب
أن للقرآن أن يحدثنا عن ابراهيم وعن اسماعيل ، ولكن التاريخ
لا يعترف بهما — أو كما قال — •

يا هذا • ان آيات القرآن واضحات ، لا لبس فيها
ولا غموض ، وانك وكثير من أمثالك ترهبون أن تقولوا كلمة
واحدة في أى كتاب آخر من الكتب التي أنزل الله أصولها ،
فما خطب القرآن عندكم يا هؤلاء !! شيئا من الحياة •
ولا أختتم هذا الحديث دون أن أشير الى توبيخ وجهه
الكاتب الى مشركى مكة حيث اقتصر على وصف القرآن

(١) سورة البقرة • الآيات ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ •

بأنه أساطير الأولين ، فقد كانوا قصيري النظر حين اقتصروا على ذلك • ولو أنه كان في مكة إبان الدعوة لأرشد صناديد قريش الى الا يقتصروا على هذا الوصف ، والى أن يتنبهوا - مع ذلك - الى تحايل القرآن واغتنامه المواقف الخصبة ، واستغلاله للشخصيات الأسطورية ، والى أنه في سورة الكهف في قصة موسى والعبد الصالح (يذق) - وهذه كلمته - على نعمة خاصة •

ولكن من الانصاف للكاتب أنه في كل وقفة من وقفاته لم يفتنه ان يعتبر صنيع القرآن هذا لونا من (الاعجاز) ، وكما يقول : الاعجاز الفنى الخالد ، والاعجاز الناشئ من العلاقة الوشيقة بين الكلمة والمتلقى •

ولا غرو ، أليس الله أدبيا بارعا يحث على المواقف الخصبة ١٤

التَّجْدِيدُ الدِّينِيُّ

لا يكاد يمر يوم دون أن يسجل الراصد للتيارات الفكرية في أيامنا هذه تياراً منحرفاً في التفكير الديني •

فقد كثرت وسائل الاعلام ، واتسع مجالها ، من صحف ومجلات ، واذاعة مسموعة وأخرى مشاهدة منظورة ، و (سينما) ومسرح ، وأندية ثقافية •• الى أنماط أخرى تتيح للناس ان يعبروا عن آرائهم •

وقد يكون من الخير أن يتذاكر الناس شئون دينهم ، وأن يعبر كل ذي رأى عن رأيه ، فان الحقيقة بنت البحث — كما يقال — وأن المذاكرة تعدى على العلم — كما يقال أيضاً — •

ولكن الذي لا يبشر بخير ، أن يقول كل من أراد ما أراد دون أن يرجع الى فقه في موضوعه ، ودون أن يتعمق الدراسة ليمحص رأيه ، وأن يقتحم الكاتب كل موضوع دون أن يكون من أهله ، فان أضرار هذا التقحم كثيرة ، وأولها يعود على الكاتب نفسه ، لأنه يظهره في ثوب الجاهل المتعالم ، أو الأجنبي المتطفل •

ولعلك أيها القارئ لاحظت كما لاحظت أن كثيرين ممن يتكلمون في الإصلاح الديني تنقصهم الدراسة الواعية •

ويتملكهم الغرور المتعالي ، وتسيطر على أقلامهم وعقولهم (اللامبالاة) غيرغفون بما لا يعرفون ، ويعتسفون في مجاهل ليست لهم أية خبرة بشعابها ووديانها ، وقديما قال العرب : قتل أرضا عالمها وقتلت أرض جاهلها •

هل سمعت (حلاق القرية) في ساحة الحي حيث يجلس متعاليا متطاولا وحوله أهله وعشيرته متعلقون ، يحاضر في أدق شئون الطب ، ويشخص أكثر الأمراض تعقيدا ، ويصف لها من الأدوية ما كانت تصفه العجائز منذ قرون ؟

إذا كنت رأيت هذا المشهد الرائع العجيب ، أو سمعت به ، فاعلم أنه مثل واضح صادق لبعض أصحابنا الذين يحاضرون أو يكتبون ، أو (يذيعون) آراء يزعمون أنها لتجديد الدين ، أو لتفسيره ، أو لحل مشاكل الناس من الناحية الدينية ، وهم فيما يبدو لم يقرءوا كتابا واحدا في أصول التشريع ، أو على الأقل لم يفهموا هذا الكتاب إذا كانت كبرياؤهم سمحت لهم فحاولوا أن يمروا بصفحاته مرور العجالي المجهدين •

ولعل أخطر هذه الآراء تلك التي يذيعها اناس يملكون حق النشر والطلی فهم في الوقت الذي يعلنون فيه أنهم يقدسون حرية الرأي ، ويقدرّون قيمة الكلمة لا تسعفهم الشجاعة النفسية أن ينشروا كلمة واحدة تعاسرهم الحساب ، أو تبين لهم مدى الخطأ الذي يقعون فيه ، في الوقت الذي يذيعون فيه كل كلمة منحرفة ما دامت تسير في الطريق الذي يسيرون فيه ، وتهدف الى الغاية التي يقصدونها •

ولسنا نطلب من الدولة أن تضرب على أيدي هؤلاء ، ولا من المسؤولين الحقيقيين عن أجهزة الاعلام أن يطهروها ممن يقولون بغير علم ، ويجترئون على الحقائق بغير اكتراث •

ويعتدون على مقدساتنا لغير صالح أمتنا ، لسنا نطلب شيئاً من ذلك ، ولكننا نطلب منهم أن تكون لهم رقابة على سير هذه الأجهزة حتى يدركوا أن اتجاهات خاصة تسيطر على بعضها ، ولا أثر لاتجاهات أخرى تحد من غلواء تلك الاتجاهات ، وتثقل من خطرهما على عقائد الناس ، وعلى أخلاقهم •

لقد كان منذ سنوات كاتب كان حواريوه يصفونه بأنه من أعمدة الفكر في هذا العصر ، وكان يكتب (يومياته) في صحيفة يومية ، وكثيراً ما تناول قضايا دينية وحشد لها من المنحرفين وطلاب الشهرة من يؤيد آراءه ويحطب في حباله ، وكان أكثر ما يتبجح به حرية الرأي ، ولست أذكر أنه سمح مرة واحدة لكلمة حق أن تنشر في (يومياته) على الرغم من الكلمات للجادة ، الواضحة الحجة ، البينة المحجة التي أرسلت إليه •



ذكرت كل ذلك حين رأيتني في الأيام الأخيرة أطلع كل يوم على عجيبة في مهاجمة الدين ، أو في تحريف نصوصه ، أو في تفسير قواعده وأصوله ، على طريقة (حلاق قريتنا) العالم بالطب والجراحة ، وهو لا يعرف إلا الحجامة والكي بالنار ونزع الأضراس (بكماشته العتيدة) •

وآخر ما قرأت من هذا مقالات في (التجديد الديني) لأحد الكتاب المعروفين ، أثر بها مجلة معينة •

وعلى الرغم من معرفتي القديمة لهذا الكاتب فقد تابعت قراءة هذه المقالات على أمل أن أجد فيها جديداً ينفع أمتنا ، وينفع المسلمين في وقتهم الحاضر ، ولكن وجدنتي بعد أن أتمت الكاتب مقالاته أذكر هذه القصة القصيرة :

لقى رجل صديقا له فسأله : الحسن والحسين بنتا معاوية
ابن أبى طالب فقال له صاحبه : والله ، ما أدري أى أخطائك
أصلح ؟ وقد مست هذه المقالات أصولا وفروعا فى التشريع
الاسلامى مسا عنيفا •

وسأترك للمتعمقين فى دراسة الفقه والأصول الرد على
ما أثاره من مسائل جزئية ، وأراجع فى القضايا الكبرى التى
أثارها ، والتى أظن انها لا تخفى على من له الملم ما بالتشريع
الاسلامى ، وسيتبين من هذه المراجعة أن الكاتب لم يكن
يعتقد ما يقول •

* * *

١ - ابتدأ الكاتب فوضع (أصلا) ليبنى عليه كل ما أتى
به بعد ، ذلك الأصل هو أن فى التشريعات الدينية عناصر
ثابتة خالدة لا تتأثر بزمان أو بمكان وعناصر أخرى غير
ثابتة •

ومثل للأولى بالمعتقدات الدينية الخاصة بالايمان بالله
وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهى التى وصى الله
بها جميع الأنبياء - كما ورد فى هذه الآية التى ساقها الكاتب
فى هذا الموضع - : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا
والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن
أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ^(١) » • واعتمد - هنا - على
تفسير الرازى لهذه الآية ، وخلص الى العناصر غير الثابتة
ورأى أنها (التكاليف والأحكام) فهى - كما يقول - خاضعة
للتغيير والتبديل •

(١) سورة الشورى من الآية ١٣ •

وهكذا في غفلة من العقل ، وذهول من المنطق ، وفي جرأة على الحق حكم الكاتب على (التكليف والأحكام) في شريعتنا الإسلامية الثابتة الخالدة بأنها غير ثابتة ، ولا خالدة .
فالحللة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، ينالها التغيير والتبديل أصولا وفروعا في رأى الكاتب .

وإذا كانت الصلاة — مثلا — تختلف في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم عن شريعة إبراهيم ، ونوح ، فينبغى — كما يزعم الكاتب — أن تختلف في القرن العشرين عنها في حياة الرسول ، وهكذا يقال في كل التكليف .

ولا أعتقد أن هذا جهل من الكاتب فهذا لا يكاد يجهل الحق فيه مسلم ولا غير مسلم ، فبقى أن يرجع القارئ الى حدسه وتخمينه ليعرف ما الذى حمل كاتباً له صيته أن يثبت مثل هذا الكلام .

ونمضى مع الكاتب فنراه يصر على هذا الذى ارتآه ، ولكنه بدأ يتراجع شيئا فشيئا ، فيرى أن نصوص الشرائع السماوية نصوص مقدسة ولا يمكن أن تكون محل تغيير ، ولكنه فى الوقت نفسه يرى أن آيات الأحكام أو بعضها يمكن أن تتأثر بفعل الزمن ، هكذا (آيات) فهو لم يقل : الأحكام التى استتبطها الفقهاء من بعض الآيات ، وإنما قال (الآيات) كأنه يرى أن بعض النصوص المقدسة يمكن أن يتأثر بفضول الزمن .

ويضرب فى عمياء مظلمة ، فى خبط وخط ، راجعا مرة الى ابن خلدون وأخرى الى ابن قيم الجوزية ، وثالث الى بعض الآيات ليصل أخيرا فى اعياء واجهاد الى أحد الفقهاء ذلك الذى يرى أن مخالفة الأحكام المأخوذة من النصوص الدينية تجوز

الضرورة وذلك اذا زالت علة الحكم الشرعى ، أو تغير العرف
والعادة ، ويعلن هنا عن قاعدة ذهبية رآها في بعض الكتب
دون أن يتعمق في دراستها ، وينسبها الى (الفقهاء المسلمين)
هكذا جسيغة التعميم ، وهى : « ان الحكم الشرعى المبني على
علة يدور مع علته وجودا وعدما » .

وأنا أترك شرح هذه القاعدة ، وبيان ما فيها لمن يناقشونه
من فقهاءنا أو أحيله على أى كتاب من كتب أصول الفقه ليتقنهم
هذه القاعدة جيدا .

ويذكر هنا - مثلا - وهو - كما يقول - تعطيل سيدنا عمر
ابن الخطاب لبعض النصوص القرآنية الخاصة بالمؤلفة قلوبهم
وأحيله على أحد الشيوخ ليشرح له صنيع عمر ، ، فان مثل
هذا الكاتب لا يحتاج فقط الى كتاب يقرأ فيه ، وانما يحتاج
الى معلم يرشده .

ومن هذا القبيل ما نسبته الى الامام أبى يوسف فى جرأة
غريبة ، وتعميم عجيب من جواز ترك النص واتباع العادة .
٢ - وينسب الى الفقهاء انهم يقولون ان الاجماع انما
يكون حين لا يوجد نص من كتاب ، أو سنة صحيحة ، ومعنى
ذلك - عنده - أن الحكم الشرعى الذى يجىء عن طريق
الاجماع يكون حكما شرعيا مستحدثا .

وهذه غلطة سببها أن الكاتب لم يحاول أن يطلع حتى
ولا على (تعريف) الاجماع ، ويستطرد الكاتب فيبنى على
أصله هذا أن طبيعة الاجماع هى بعينها طبيعة التشريعات
المدنية ، أى أنها وضع القوانين والقواعد المنظمة للعلاقات
بين الناس ، وان كانت القوانين المدنية - فيما يرى - أدق ،
وأكمل تنظيما .

وما دام سبيل الاجماع ، والتشريعات المدنية واحدا فلماذا لا نعتبر التشريعات المدنية الحديثة الخاصة بالمعاملات ، والصادرة عن الهيئات التشريعية الحديثة من قبيل الاجماع ، انه يعتبرها كذلك ، ولا عبرة في هذا الموقف بمخالفتها لاجماع سابق ، ولو كان هذا الاجماع اجماعا للصحابة - رضى الله عنهم - كما قال •
ونقول له :

أولا : اعلم - وفقك الله - أن الاجماع لابد أن يعتمد على نص ، من كتاب أو سنة (فاذا لم يكن في نازلة كتاب ولا سنة وأتى فيها السلف بفتوى ، ولم يعلم عن أحد منهم خلاف في تلك الفتوى ، فان جمهور الفقهاء يرى ذلك حجة في الدين وذلك أن اجتماعهم لا يكون عن رأى ، اذ الرأى اذا كان تفرق فيه •

وذلك - في الحقيقة - راجع الى العمل بالسنة ، واعتبار ما كان من عدم الخلاف دليلا على وجود سنة رجعت اليها تلك الفتوى ، وهذا قليل الوجود جدا ، فيما اجتهد فيه العلماء ^(١) • وأظن أن هذا الكلام واضح لايحتاج الى شرح ، فالاجماع ليس عن رأى محض ، وانما هو مستمد من النصوص • والاتفاق على فتوى دون أن يعلم مصدرها من الكتاب والسنة قليل جدا •

ولعل من هذا القبيل تقسيم الكاتب الأحكام الشرعية الى ما كان عن آية قرآنية ، أو سنة متواترة ، وما كان عن رأى الفقهاء ، كأن الفقهاء يقولون من عند أنفسهم دون أن يكون

(١) تاريخ التشريع للشيخ الخضرى ص ٢٠٦ ط أولى •

لآرائهم مستند من كتاب أو سنة، ووضع كلمة (متواترة) هنا بجانب السنة يهدف الى غاية منكورة ، اذ من المعلوم أن المتواتر من الأحاديث قليل ، وأن الأحكام الشرعية المأخوذة عن الأحاديث غير المتواترة كثيرة ، وكأن الكاتب يريد الا يثق في هذه الأحكام ، وهو — في هذا — يجهل لباب علم الأصول •

ونقول له ثانيا : ان الاجماع في كل مسألة لا يعتبر الا اذا كان من (المتخصصين) في هذا العلم ، وليست أحكام الدين بأقل حرمة من قضايا الهندسة والطب والجغرافيا ، فاذا كنا لا نقبل من أعلام الهندسة أن يفتونا في أدق الشئون الطبية ولا في أوضاعها فكيف نقبل من رجال لم يتخصصوا في الدراسات الدينية أن يفتونا في شئون ديننا ، وأن نعتبر اجماعهم ملزما لنا ، بل ناسخا لاجماع الصحابة •

كيف نقبل من لجنة فيها كوهين ومرقص والمستشرق فلان من أعداء الاسلام أن يكون حكمهم ملزما لنا في شريعتنا بل معطلا للحكم الذي أجمع عليه صحابة رسول الله •

اننى مرة أخرى أجهل الغاية الحقيقية التى يجرى الكاتب خلفها ليدركها بمثل هذا الهراء •

٣ — وقريب من الاجماع اجتهاد المجتهدين ، والكاتب يرى فيه ما رآه في الاجماع أنه يرى أن الاجتهاد منفصل عن الكتاب والسنة ، ويجعل هذا الاجتهاد قسيما لهما ، فمصادر التشريع عنده ثلاثة : الكتاب ، والسنة ، والاجتهاد — ونسى هنا الاجماع — ثم ان أقوال المجتهدين غير ملزمة لنا ، لأن لنا من الحق مثل ما لهم •

ولو أن الكاتب مال على طائب أزهرى صغير ، وسأله أن يعرف له الاجتهاد لقال : له : انه استفادة المكلف الحكم من

كلام الوحي هكذا (كلام الوحي) • ولو ظفر بطالب آخر لعرف له الاجتهاد تعريفاً آخر فقال له : هو بذل أقصى الوسم لتحصيل حكم شرعى عملى بطريق الاستنباط من الأدلة الشرعية •

وربما أسعده الحظ غلقى عالماً أزهرياً يقول له ، ان الاجتهاد هو الفقه ، وان الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية ، واذن فليست أقوال الوحي هى الأحكام وانما هى (أدلة الأحكام) والعالم اذا وجه همه ، وبذل جهده ، واستخرج حكماً من هذه الأدلةسمى (مجتهداً) •

فالاجتهاد — أيها السيد الجليل — ليس منفصلاً عن الكتاب والسنة ، وانما هو معتمد عليهما ، أخذ منهما • ويخبط الكاتب — كمادته — فى موضوع الاجتهاد ، فيرى أن شروطه معجزة وأنه الآن أيسر منه فيما مضى للتقدم العلمى والرقى الفكرى الذين يساعدان على المضى فى الاجتهاد دون خشية من الانحراف أو الخطأ ولتعدد الدراسات الذى يجعل ثقافة من يريد أن يجتهد أدق وأعمق من ثقافات السابقين •

ولا غرو ، فما دام يريد أن يقول فى الدين كل (من هب) وكل (من دب) ، فشروط الاجتهاد معجزة ، وما دام يرى أن من حق الفلاح فى الحقل ، والصانع فى المصنع ، والصحفى فى مكتبته ، ما دام يرى أن من حق كل هؤلاء ان يجتهدوا ، فلا بأس ، لأنهم أعمق ثقافة من السابقين ، ولا علينا أن يجتهد فى الدين من لا يحفظ آية من كتاب الله ، ولا من لا يعرف معنى السنة • ولا من لم يدرس شيئاً فى سيرة

الصحابه والتابعين ، والائمة المجتهدين ، لا علينا من ذلك ما دام قد قرأ (كارل ماركس) وتعاليم (لينين) ووجودية (سارتر) أليس هؤلاء أدق ، وأعرق ثقافة من السابقين ؟ !
٤ — ويبدو أن الكاتب (عجن ما عجن) ليصل الى الرأي في المعاملات الحديثة فهو يطالعنا — أولا — بأن السنة العملية كانت تدور أكثر ما تدور حول العبادات ، أما المعاملات فكانت عبارة الرسول عليه السلام : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

لقد ذكرنى هذا الكلام بموقف أبى حنيفة رضى الله عنه من ذلك الرجل الذى احترمه ، ثم تبين له .

قالوا : ان أبا حنيفة كان يدرس فى المسجد ، وبينما هو جالس دخل رجل له هيئة وشارة حسنة ، وكان أبو حنيفة ماداً رجله — لعل ذلك من وجع — فلما رأى الرجل ضمها ، ثم قال أبو حنيفة : اذا أدبر النهار من هنا وأقبل الليل من هنا أفطر الصائم . فقال الرجل : يا هذا ، اذا أدبر النهار من هنا ، وأقبل الليل من هنا ولا تزال الشمس طالعة ، فماذا نصنع ، فقال الامام : اذن ، أبو حنيفة يمد رجله .

هل يصدق أحد لو لم يكن امضاء الكاتب مزيلاً لمقاله أن مثله يقول هذا الكلام .

المعاملات ، ليست فى كتاب ، ولا سنة ، المعاملات فصل فيها النبى بقوله : أنتم أعلم بشئون دنياكم ، ومن عجب أن الكاتب ذكر أن كلام النبى هذا جاء فى حادثة أبر النخل .
فأولاً : من المعاملات البيوع والرهن والحجر ، والشفعة والوكالة والحوالة والكفالة وكثير غير هذه ، ولو قرأ الكاتب كتاباً صغيراً فى الفقه الاسلامى لوجد فى أول كل باب من هذه الأبواب : دليل مشروعيته الكتاب والسنة .

وثانيا : من قال ، ومن يعقل ان (أبر النخل) من
المعاملات ؟

ان الكاتب في سبيل هدفه يغفل عن أوضح الأمور ، وأبينها ،
وهذا ليس شأن من يدعو الى (التجديد الدينى) الا اذا كان
الدين عندها أهون من كلمة تكتب في صحيفة •

ومن هذا الخبط — أيضا — قول الكاتب ان الرجوع الى
السنة النظرية وبخاصة في باب المعاملات كان قليلا ، يوم أن
كانت تجمع وتدون ، كأن الفقهاء لم يكونوا يرجعون الى هذه
السنة الا حين يجدونها في كتاب •

ومرة أخرى أقول للكاتب ارجع الى كتاب من كتب الفقه
لتعرف ان السنة كانت مصدرا مهما لكل التشريعات ومنها
المعاملات •

ويخطو الكاتب خطوة أخرى في شأن المعاملات فيرى : أن
ما وافق مصلحتنا قلنا به ، وما لم يوافق أعرضنا عنه •
فالأساس في ميدان المعاملات — كما يقول — هو رعاية
حاجات الناس ، والمصلحة العامة •

وهذا كلام سبقه به أحد الكتاب ، ورددنا عليه في حينه ،
ونريد أن نوجز له القول هنا • فنقول : ان معنى هذا أن
المصلحة هي التي توجه النصوص وتفسر الآيات ، وليس
الشرع هو الذى ينظم هذه المصلحة ، وبين ما هو مصلحة في
الحقيقة ، وما ليس مصلحة ، اننا حين نخضع التشريع
للمصلحة ، نختلف اختلافا كبيرا لأن بعض ما يراه الرأسماليون
مصلحة لا يراه الشيوعيون •• وهكذا •

ثم يخطو الخطوة الأخيرة — ولعلها الهدف الأصيل — فيرى
أن جميع مشروعاتنا المستحدثة لا تحتاج الى فتوى من رجال

الدين اذ من المسلم به أن الكتاب والسنة لم يتعرضا لها ، لأنها لم تكن موجودة •

ما شاء الله • هل يعتقد الكاتب هذا الكلام حقا ؟ ألا يعرف الكاتب ان كثيرا من مشروعاتنا كان في كل زمان ومكان ؟ ألا يعرف الكاتب أن في التشريع الاسلامى قواعد كلية ، يرجع اليها للحكم في المسائل الجزئية ؟

ان الكاتب نفسه يعمى فيذكر أن من القواعد أن الأصل في الأشياء الإباحة وما دامت معاملتنا الحديثة لم تكن موجودة فلم يرد فيها نص بالتحريم فهي مباحة •

أليس ذلك رجوع الى قاعدة من قواعد التشريع ؟ يؤكدنا من ينكر أن يكون للتشريع الاسلامى رأى في هذه المستحدثات ، وليس بين الاثبات والانكار فاصل يجعله ينسب على أن القياس أصل من أصول الأحكام ، ومعناه أن تقاس الجزئية المستحدثة على جزئية قديمة تشبهها •

• — ويلح الكاتب في رأى أبى يوسف فيما يتعلق بحكم العادة ، فينسب اليه مرة أخرى القول بأن الحكم الشرعى المبني على العادة يعطل اذا تغيرت العادة ولا ضير من مخالفة النصوص •

وأنا لا أناقش الكاتب في مدى صحة نسبة هذا القول الى الامام أبى يوسف مع ترجيحي أنه لا يكاد يصدق أن عالما من علماء المسلمين يعطل الشريعة لحكم العادة ولكنى أناقشه في المثال الذى أراد أن يطبق الحكم فيه بناء على هذا القول : قال الكاتب : انه ليس من حقنا اليوم أن نقتل الجندى المقاتل ، أو نسترقه ، وليس من حقنا أن نسبى النساء والأطفال ونسترقهم وليس للجندى نصيب في الغنائم وليذهب قول

النبي صلى الله عليه وسلم : (من قتل قتيلا فله سلبه) •
أدراج الرياح •

لماذا ، لأن قوانين الحرب قد تغيرت كما تغيرت العادات ،
وكل ذلك قد عطل نصوص الشرع الشريف الخاصة بالغنائم •
ولا ضير في ذلك ، ولا ضرر •

وهذا — أولا — اجتهد من الكاتب ، وهو ليس أهلا لهذا
الاجتهاد ، لأنه فيما أعرف ، وفيما يبدو من مقالاته لم يدرس
آية دراسة جادة كتب التشريع الاسلامي •

وثانيا — أن الحكم على شرعنا بالقوانين الدولية رفع لهذه
القوانين فوق نصوص الشرع ، ولا يرضى بذلك مسلم •
وثالثا — على الكاتب أن يقرأ (باب الجهاد والسير) في
كتب الفقه ليعرف أنه لا ضير في أن نسترق الجندي المقاتل
لنا اذ توفرت الشروط التي كان يسترق بها الجندي في حروب
الاسلام ، وان أخذ المقاتل سلب القتييل لا يمنعه مانع ،
ولا يعترض على هذا بأننا لا نستطيع اليوم أن نقتل من قتل
القتيل فهذه ليست صورة مستحدثة ، وانما كانت في اليهود
الاسلامية الاولى ، وكان لها حكمها الاسلامي •

ورابعا — من قال ان بلاد الاسلام تطبق فيها هذه الأحكام
حتى ترضى أولا ترضى •

ان الكاتب يستخدم الأساليب الخطابية في أدق الشئون
الدينية ، انه يريد أن يعطل نصوص الشرع الشريف كما يقول
لأننا لا نسمح بتطبيق هذه النصوص علينا •

أبهذه السهولة — يا صاحب الفن القصصي — تقضى على
آيات بينات محكمات في كتابنا المقدس ؟ •

أهذا هو التجديد الديني ؟

لقد هزلت حتى بدا من هزالها •

كلأها ، وحتى سامها كل مفلس

٦ - وأخيرا - وقد قلت انى لا أريد أن أراجع الكاتب فى شىء من التفاصيل - أحب أن أقف معه وقفة قصيرة فى دعوته التى ختم بها مقالاته •

لقد توجه الى رجال الدين ، والى علماء الأزهر الشريف أن يطبقوا أحكام الشرع الشريف فيعلنوا تنازلهم عن أراضيتهم التى تحت أيديهم ، لأن مصر فتحت عنوة ، والأرض المفتوحة عنوة ملك للدولة - كما تفيد نصوص الشرع فيما يرى الكاتب •

ولست أريد أن أبين (تفاهة) هذا الكلام ، وما يحمل من سوء قصد وإنما أريد أن أوجه نظره الى أمور :

الأول : أنه فى كل ما سبق من مقالاته يرى أن المعتبر هو نص القرآن والحديث المتواتر ، وما عدا ذلك فأقوال فقهاء ، لنا أن نأخذ بها ولنا أن نلغيها •

فأين وجد فى القرآن ، أو فى الحديث المتواتر أن الأرض التى فتحت عنوة ملك للدولة ؟

الثانى : هل يعرف الكاتب الرقعة التى كانت مزروعة فى مصر أيام فتح العرب لها ؟

الثالث : أن أرض مصر مملوكة لأهلها فلا إمام اذا فتح يلدا عنوة أن يقر أهلها عليها ، وقد أقر عمر - رضى الله عنه - أهل مصر على ما يملكون فثبت لهم التصرف فيها بكل أقبواعه •

من بعض العارفين يقدر هذه الرقعة بعشر المساحة المزروعة
الآن أما التسعة الأعشار الباقية فهي مما أصلحها الناس
أو أصلحتها الدولة وباعتها للناس ، والنص الشرعى يقول :
(من أحيا مواتا فهو له) •

أليس قول الكاتب هذا مما يؤكد له أن من الضرورى لمن
يكتب فى مسألة أن يحيط بجميع ما قيل فيها ؟ والا كان قوله
ردا عليه ، ودليلا على أنه يقول فيما لا يعرف •

إن رجال الدين ، وعلماء الأزهر الشريف — أيها السيد —
كانوا وما يزالون المثل الأعلى للبازلين فى سبيل الوطن ، وفى
سبيل مصلحة الأمة ، وفى مقدمة الداعين الى أن يأخذ الفقير
حقه ، ولا نعرف فيهم من استغل مركزه أو عمله فى سبيل
كسب مادى ، والاحتتيال على هذا الكسب بالمشروع وغير
المشروع من الأعمال والأقوال •

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

- ١ -

حين كنت في هيئة تحرير مجلة الأزهر عرض علينا بحث عنوانه (دين الله واحد) وقد أثر كاتبه ان يقدمه غفلا من التوقيع .

ونظر فيه أحد الزملاء فما كاد ينتهي من قراءة المقدمة ، حتى القاء أمام رئيس التحرير ، وقال : ان هذا البحث كتبه أحد المبشرين .

ولكن قارئ هذا المقال راق له أن يتم قراءة البحث ، حتى اذا رفض نشره كانت في يده (حيثيات الحكم) ، ثم انه رغب أن يعرف ما يقوله هؤلاء الذين يبشرون بالمسيحية من غير أهلها ، فقد كان على يقين أنه لم يكتبه رجل من رجال الدين المسيحي ، وانما كتبه أحد الكتاب المسلمين .

وفعلا قرأت البحث بامعان ، وكتبت على هوامش النسخة تعليقات تبين ما فيه من أخطاء علمية ، وما يتضمنه من انحراف في العقيدة .

وكتبت أظن أن صاحب هذا البحث — اذا كان مؤمنا بعقله ودينه — لن ينشره حتى يصلح من أخطائه ، ثم علمت أن

- ٤٢ -

البحث قد نشر ، وتبين أن مؤلفه ليس مبشرا وإنما هو رجل مسلم يلبس العمامة ، ويرتدى الجبة والقفطان •

وقد اعترفت أن التزام الصمت حيال هذا البحث ، فربما كان الجدل حوله أحد الأهداف التي يقصد إليها المؤلف من نشره • وسكت •

غير أن أحد الكتاب الغيورين كتب منذ أسابيع فصلا في مجلة الرسالة أبان فيه عما رآه في الكتاب من انحراف ، ومع حرص الكاتب على التتبع ، ومقارعة الحجة بالحجة فاتته أشياء ذات بال ، فرأيت أن الواجب يقتضي — وقد علم بعض القراء شأن هذا الكتاب — أن أكتب هذه الكلمات ، وأعتقد أن فيها فائدة للمؤلف — وإن لم ينتفع بما كتبت على هوامش البحث من قبل — وفائدة لأولئك الذين يشجعونه على مثل هذا البحث ، فإن في البحث تغريرا بهم في عقيدتهم ، وفي هذا البيان ارشاد إلى الطريق القويم الذي يتحتم عليهم أن يسلكوه ، حتى يكونوا عند الله من الناجين •

يقوم الكتاب على فكرة واحدة ، أعلنها المؤلف في حراحة ، ثم راح يدور حولها في كل فصول الكتاب •

قال المؤلف : (فكل من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويعمل صالحا فهو ناج بفضل الله — أن شاء الله — ذلك بأن هذه الصفات الثلاث هي أركان الدين الأساسية على لسان كل رسول ، فمن اتبع أحكامها ، وأقام أصولها ، من أي دين كان — فاز برضوان الله ، ومن أخل بشيء منها ، واتبع هواه ،

فأمره اذن الى الله ان شاء رحمه ، وان شاء عذبه ، وهو — سبحانه — غفور رحيم لا يسأل عما يفعل) •

ومعنى هذه العبارة ان الايمان بالمرسل ، والكتب المنزلة ، ليس ركنا من أركان الدين ، لأنه حصر الأركان في تلك الثلاثة :
الايمان بالله ، والايمان باليوم الآخر والعمل الصالح •

والمؤلف قد جعل النجاة — أولا — بنقل الله ان شاء ، ثم جعلها — ثانيا — غير متوقفة على شيء غير اتباع أحكام هذه الأركان واقامة أصولها ، فقد حكم بأن مثل هذا فائز برضوان الله — هكذا من غير تقييد بشيء •

والمسلمون يؤمنون بالله ، وبرسوله جميعا ، وبكل كتبه المنزلة ، وباليوم الآخر فهم غير محتاجين لهذا القانون الذى وضعه المؤلف • واليهود غير منتفعين به أيضا لان المؤلف نبذهم بقوله فى ص ٧٦ (ولا يفوتنا أن نبين أن كلامنا عن اليهود — هنا — ليس على إطلاقه ، وانما نقصد به اليهود الذين اتبعوا موسى عليه السلام بحق ، وآمنوا بتوراته الصحيحة التى أنزلها الله إيماننا صحيحا ، وأخذوا أنفسهم بأدابها وتعاليمها أخذًا صادقًا) •

وقبل أن نناقش المؤلف فى دعاواه التى أوردتها فى الكتاب نحب أن ننبه الى حقيقتين اثنتين فى هذه الكلمة التى نقلناها فى أول هذه الكلمة :

الحقيقة الأولى : كيف يتم الايمان بالله دون أن يؤمن الانسان بكل ما يصدر عنه ؟ •

والحقيقة الثانية : يقول : ومن أخل بشيء منها فأمره الى الله ان شاء رحمه . الخ ومن هذه الثلاث (الايمان بالله) فمعنى كلامه أن من أخل بالايمان بالله ، أى كفر به — سبحانه — فأمره الى الله ان شاء رحمه ، وان شاء عذبه ، وهذا مخالف لنص محكم صريح من نصوص القرآن ، وهو قوله تعالى : « ان الله لا يغفر أن يشرك به » (١) . والمؤلف يعرف حكم من ينكر نصا صريحا من نصوص القرآن الكريم .

ثم نأخذ في مناقشة المؤلف في كل ما جانب فيه الحق والصواب :

فرق المؤلف بين العبادات والمعاملات ، فجعل الأولى من وظيفة الرسل ، أما القول في الثانية فلا شأن للرسل به — كما زعم — ومن ثم فلا تتعلق بها التشريعات التي جاءت بها الأديان وفي ذلك يقول : (أما أحكام الحياة ونظمها — وهو المعبر عنه (بالمعاملات) — فانه يتغير بتغير الزمان ، وأحوال الناس وطبائعهم وطرائق معاشهم ، كما تتغير القوانين الوضعية بين الفينة والفينة . . . وهذا الأمر قد تركه الله للناس — كما قال استاذنا الامام محمد عبده — وفي ذلك يقول محمد — صلى الله عليه وسلم — أنتم أعلم بأمور دنياكم) .

ولا أدرى ما الدافع القوي الذي يدفع بعض من يريدون أن يقحموا أنفسهم في الحديث عن التشريعات الاسلامية الى

(١) ذكر هذا الجزء في آيتين كريمتين من سورة النساء ١٦، ٤٨

أن يقولوا . ويكرروا القول أن (المعاملات) لا تدخل في نطاق التشريع — وهم بالطبع — يريدون التشريع الاسلامى ؟

ان (المعاملات) كلمة اصطلاحية ، وضعها فقهاء المسلمين لما يجرى بين الناس من شئون الحياة كالبيع والرهن ، والشفعة ، والهبة .. وما الى ذلك ، فهل هذه من شئون الدنيا التى تركها الرسول للناس ؟ • وهل خلا القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف من بيان أحكامها ، وليست هذه المعاملات متركبة للناس يقولون فيها بأهوائهم ، وانما وضعت الشريعة الاسلامية اصولا لكل هذه الأمور ، فخراجها عن دائرة الشريعة لا يؤدى الا الى رفع حكم الله عنها ، وترك الناس يسيرون فيها كما يشاءون •

وقد استعان المؤلف فى خطبه ، وخالطه بكلام الشيخ محمد عبده ••

فأولا : ليقول الشيخ محمد عبده ، ومن هو أفقه من الشيخ محمد عبده ما شاء فاننا لا نأخذ ديننا عن هذا ، ولا عن ذاك ، وانما نأخذه من مصادره الأولى ، وهى معروفة غير مجهولة •

والمعاملات الاسلامية التى تكلم فيها الفقهاء مصحوبة بأدلتها من الكتاب والسنة والقياس والاجماع من صميم الشريعة ، وليست كتأبير النخل ، تلك الحادثة التى ورد فيها قول الرسول العظيم : أنتم أعلم بأمور دنياكم •

وثانيا : كلمة الشيخ محمد عبده لا تعنى المعاملات

المعروفة ، ولا أظن الشيخ رحمه الله خطر بباله أن يخرج المعاملات عن حكم الشريعة ، وهذه هي كلمة الشيخ : (وأما تفصيل طرق المعيشة ، والحذق في وجوه الكسب ، وتطاول شهوات العقل الى درك ما أعد للوصول اليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه الا من وجه العظة العامة ، والارشاد الى الاعتدال فيه ، وتقدير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريبا في الاعتقاد بأن للكون الها واحدا قادرا عالما حكيما متصفا بما أوجب الدليل بأن يتصف به) •

وكيف يقصد الشيخ محمد عبده الى التعميم ، والله يقول « وان كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا فلهان مقبوضة (١) » ويقول : « يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى » وهذه الآية هي أطول آية في القرآن ، وقد جمعت كل ما يتعلق بكتابة الدين ، ويقول : « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ... الآية » •

والمراث : أهو من العبادات أم من المعاملات ؟ وغير ذلك كثير في القرآن الكريم ، ينبغي أن يكون عند الذين يقولون فيما يتصل بالتشريع الاسلامى شىء من الحياء •

ويرى المؤلف — وهذا هو جوهر البحث — ان لكل واحد من أصحاب الأديان أن يؤدي عبادته على الصورة التي

(١) البقرة من الآية ١٨٣ •

(٢) النساء من الآية ٦ •

بينها دينه ، في معبده أو في بيته أو في خلوته ، أو في أى بقعة من الأرض ، فأينما تولوا فثم وجه الله •

وهذا الكلام يحتمل وجهين :

الأول : أن يكون المؤلف قصد أن كل ذى دين من حقه أن يعبد الله على الطريقة التى نهجها له دينه ، لا حجر عليه فى ذلك ولا تقيد لحريته ، وهذا أمر لا نخالف فيه ، فان الاسلام أمرنا بأن نترك أصحاب البيع والكائس يؤدون شعائر دينهم ولا نتعرض لهم فيها •

الثانى : وهو الذى يفهم مما كتبه المؤلف بعد ذلك — أن لكل ذى دين أن يؤدى عبادته على الطريقة التى رسمها دينه ، ولا يطلب منه أن يؤدى شعائر الدين الجديد ، وهو يقصد — كما هو ظاهر — أن المسيحي غير مطالب بأن يؤمن بالاسلام ، ولا أن يؤدى شعائره ، فان قيامه بشعائر دينه يغنيه عن ذلك •

ومعنى هذا انكار عموم الشريعة المحمدية ، ومصادمة الآيات القرآنية الصريحة التى تدعو كل البشر الى أن يؤمنوا بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبأن يدينوا بدين الاسلام •

وسنترك الكلام فى هذا المقصد الى موضعه الذى هو أليق به من حديثنا هذا •

ويسوق المؤلف (حكاية) خلاصتها أن بعض رجال الدين استنكر أن يقول أحد المحامين الشرعيين فى محام من أهل الكتاب قد مات : رحمه الله ، ويغضب المؤلف لذلك ويقول : اذا كان حكمكم

على الكافر صحيحا ، فان النصراني ليس بكافر ، ويجنح الى أدله يؤيد بها جواز الاستغفار لا للنصراني فحسب ، بل للكافر أيضا •

فينقل - أولا - عن الحسن : قيل يا رسول الله ان فلانا يستغفر لآبائه المشركين فقال : ونحن نستغفر لهم • وعن علي : رأيت رجلا يستغفر لأبويه ، وهما مشركان ، فقلت له ، فقال : أليس قد استغفر ابراهيم لأبيه ؟ وينقل - ثانيا - عن الزمخشري في الكشاف أن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر ، ألا ترى الى قوله عليه السلام لعمه : لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك •

ويقول - ثالثا - بتبعية الجميع لبنى آدم مستشهدا بقول الله سبحانه « يا بني آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) فكل من يتقى ويصلح فلا خوف عليه ، والأساس الأول هو التقوى ... هكذا قال - هداه الله - •

أما - أولا - فالمؤلف تجاهل مسألة (استغفار النبي للمشركين) فذكر أولها وترك آخرها ، ولو أنه كان أمينا لأثبت هذه الآيات : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها آياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » (٢) •

(١) الاعراف ٣٥ •

(٢) التوبة ١١٣ ، ١١٤ •

ولعل قائلًا يقول : ان المؤلف قد غفل عن هذه الآيات ،
أو لعله لا يحفظها ولا يعرف مكانها في المصحف ، ولكن
لا أدري ماذا يقول هذا القائل اذا علم أن المؤلف نقل كل
هذه النقول من تفسير الكشاف ، وعين في هامش صفحة ١٣
من كتابه الجزء والصفحة من كتاب الكشاف ، وفي هذه
الصفحة تفسير هاتين الآيتين ؟ *

والمؤلف من المؤمنين بالسيد رشيد رضا ، وهو يتكىء عليه
في كثير من بحوثه اذا وافقت هواه ، والسيد يقول بالحرف
الواحد : (والمراد أنه ليس مما تبيحه النبوة ولا الايمان
ولا مما يصح وقوعه من أهلها : الاستغفار للمشركين في
حال من الأحوال حتى لو كانوا أولى قربي ، ويقول في نفس
الصفحة في تفسير الآيتين الكريمتين : (والآية — ما كان
للنبي — نص في تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة
والرحمة ، وكذلك وصفه بذلك كقولهم المغفور له المرحوم
فلان ، كما يفعله بعض المسلمين الجغرافيين الآن لعدم
تحققهم بمقتضى الايمان ، وتقيدهم بأحكام الاسلام .

فما قول المؤلف في هذا الكلام الواضح الحاسم القاطع ؟
أعتقد أنه اذا سمح لنفسه أن يغفل بعض آي القرآن ، فلن
يسمح لها أن تغفل كلام السيد رضا ، لأنه يأخذ عنه في كثير
من الآراء . *

وسنثبت له فيما يأتي من حديث : أن هؤلاء الذين يطلب
لهم الرحمة كفار بنص القرآن ولكن نبادر فنذكره بقوله

تعالى : « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم (١) »
وبقوله — سبحانه — : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث
ثلاثة » (٢) .

وقد جاء في سبب نزول الآية (ما كان للنبي) روايات ،
ومنها — كما ذكر صاحب الكشف وصححه — أن النبي لما
فتح مكة سأل أي أبويه أحدث به عهدا ؟ فقل : أمك آمنة ،
فزار قبرها بالأبواء ، ثم قام مستعبرا ، فقال : اني استأذنت
ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي ، ، واستأذنته في الاستغفار
لها فلم يأذن لي ، فنزلت .

وقيل في سبب النزول : قال المسلمون : ما يمنعا أن نستغفر
لآبائنا ، وذوي قرابتنا وقد استغفر ابراهيم لأبيه ، وهذا
محمد يستغفر لعمه فنزلت .

وان تعجب فعجب ما رواه المؤلف عن سيدنا علي كرم الله
وجهه ، وحقيقة الأمر أن عليا قال : سمعت رجلا يستغفر
لوالديه وهما مشركان فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم
فأنزل الله : « ما كان للنبي » .

وأما — ثانيا — فمن قال للمؤلف : ان احكام الاسلام
يتحكم فيها العقل وحده ؟ ولكي يتبين للقارئ مدى أمانة
المؤلف ننقل له عبارة الكشف التي اقتضبها المؤلف اقتضابا .
ان الزمخشري كان يفسر الآية الثانية ، (وما كان استغفار

(٢٤١) آيتان من سورة المائدة : الأولى من الآية ٧٢ ، والثانية
من الآية ٧٣ .

ابراهيم لأبيه) فأورد سؤالاً ، وأجاب عنه ، قال : فان قلت : كيف خفى على ابراهيم ان الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده ؟

قلت : يجوز أن يظن : أنه ما دام يرجى منه الايمان جاز الاستغفار له ، على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر انما علم بالوحي لأن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر

فالمؤلف قد ألغى الجزء الأول من كلام الزمخشري ، واكتفى بالجزء الثانى الذى أراد به ذلك العالم الجليل ان يعتذر عن ابراهيم ، فنقله المؤلف الى حديث يؤيد به مزعما من مزاعمه .

والعجب — أيضا — كيف ساق المؤلف قول النبى (ما لم أنه) ولم يذكر أن الآية نزلت تنهاه عن الاستغفار لأحد من المشركين .

وأما — ثالثا — فما معنى التقوى التى يسلم بها (النبى آدم) من الخوف والحزن ؟

أمن يدعى أن لله ولدا : أو أن الله ثالث ثلاثة هو ممن اتقوا وأصلحوا ؟

أمن جاءه دين من الله يدعوه الى أن يؤمن بالله وبرسوله وكتبه. فضرب بكل ذلك عرض الحائط ممن اتقوا وأصلحوا ؟

ومن كل ما تقدم يدرك القارىء. بوضوح أن المؤلف عمد الى المغالطات ، والى اقتضاب النصوص ليدعم دعاواه .

— ٢ —

ثم يستطرد المؤلف الى جدل وقع بين مسلم وآخر ، وقد عاب على المسلم استشهاده بقوله تعالى : « ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم »^(١) ووجه العيب عنده أن الكلمة من قول اليهود ، يريد أنها لا تستعمل الا كما قيلت ، وزعم أن الشيخ المسلم أدركه الحصر ، وأنه — أى المؤلف — قال للشيخ : حرام عليكم يا مولانا أن نفتروا على الله الكذب ، وان تأخذوا ما فى المصحف الشريف وتفهموه على ما يقضى به علمكم ، وتوقدوا بذلك نار الفتنة بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب .

والمؤلف يعلم أن جميع المسلمين عالمهم وجاهلهم ، يعاملون أهل الكتاب المقيمين بينهم كما أمرهم دينهم أن يعاملوهم : (لهم مالنا وعليهم ما علينا) ويسريرون على مقتضى قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين »^(٢) . ويعلم انه لا مانع : لا عربية ، ولا دين ، ولا خلقا ان يتمثل انسان بأية أو ببعض آية من القرآن اذا كان المقام يقتضى هذا التمثيل ، وهو يفهم جيدا ما أعنيه بهذه الكلمة .

وأعتقد أن نشر هذا الحديث كما ذكره المؤلف فى كتابه هو الذى يوقد نار الفتنة لا ما قاله الشيخ فى جدل محصور بينه

(١) آل عمران من الآية ٧٣ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٨ .

وبين أحد الناس ، فما الذي حمل المؤلف أن ينشر هذه الحكاية الصغيرة في كتاب ؟

ثم يستمر المؤلف فيذكرنا بأن القرآن وصف النصارى بأنهم أقرب الناس مودة للمسلمين ، وذلك في الآية الكريمة : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورباناً وأنهم لا يستكبرون^(١) » .

ويكتب تعليقا في هامش الصفحة على الأوصاف الأخيرة في الآية فيقول : (لم تقل الآية : وأنهم غير مؤمنين بمحمد ، أو أنهم مسلمون معك !) هكذا بوضع علامة التعجب بعد هذه الكلمات .

والمؤلف لا يلتزم بما التزمت به كل الشرائع — فمن المعلوم من الأديان بالضرورة أن الإيمان بالله وبرسوله أساس النجاة من عذاب الله ، والله لا يغفر أن يشرك به — كما جاء بنص القرآن الكريم — فما وجه العجب في أن يحكم على رجل لم يؤمن بأن الله واحد ، ولم يؤمن بأن محمدا رسول الله بأنه لن ينال رحمة الله ؟

المؤلف يذكر حكاية — كما يقول — على سبيل الفكاهة ، خلاصتها أن أحد المشايخ أجاب عن سؤال يتعلق (باديسون) فقال أنه لا يدخل الجنة لأنه لم ينطق بالشهادتين ، فعجب المؤلف من ذلك أشد العجب ، ووجه للشيخ كلامه كأنه يؤنبه فقال له أولهم : بعد أن أضاع العالم حتى مساجدكم وبيوتكم باختراعه ، فأجابوه : لا ، ولو ، فعاد يسأل :

(١) المائدة ٨٢ .

الا يمكن أن يدخل الجنة عقلا ؟ وقد خيل اليه أنه حج
المشايخ ، وسفه أحلامهم ، وهو — والله — مسكين ، غما دخل
العقل هنا ؟ لقد قال الشيوخ : ان الرجل الذي لا ينطق
بالشهادتين مهما أدى للعالم من خدمات فلن يغفر الله له ،
وهو كلام يوافق صريح النصوص ، فان كان يريد الاحتكام
الى العقل فهو يوافق العقل •

لقد أنعم الله على هذا المخترع بنعمة عظيمة ، وهي نعمة
النبوغ ، وكان مقتضى هذه النعمة أن يعترف بوحداية الله ،
وأن يصدق بكتبه ورسله ، ولكنه لم يحفل بذلك ، فمن
الملوم ؟ انه هو — ولا شك — واذا حرم الله عليه الجنة
فلأنه لم يشكر من وهب له هذه النعمة التي أضاء بها العالم ،
ومع ذلك فكيف نحتكم الى العقل والنصوص صريحة
واضحة ؟

اذا كان المؤلف مسلما ، يؤمن بأن القرآن من عند الله
فهذا حكم القرآن وان كان يرى أن الاسلام يتحقق دون
أن يؤمن الانسان بأن القرآن من عند الله وبأن محمدا رسول
الله ، وقد أرسل للناس كافة فالآن جاء الوقت للحديث معه
في هذا الشأن •

بيدو أن قوله تعالى : (ان الذين آمنوا والذين هادوا
والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا
فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)
بيدو أن هذه الآية الكريمة أو على وجه الدقة ، ظاهرها قد
أغرى كثيرا من المنحرفين لأن يتخذوا منها برهانا على أن
الايمان بمحمد ، وبالقرآن لا حاجة اليه في النجاة عند الله •
ولعل أول الطريق ما وقع فيه السيد رشيد رضا — عن

غير قصد — فاتخذوه هؤلاء سفذا وحجة ، وراحوا يقلدونه دون أن ينظروا في جملة أقواله ، بل لعلمهم نظروا ، ولكنهم وجدوا في هذا الموضع ما يسعفهم ويساعدهم على ضلالتهم فتمسكوا به ، وكأنهم يجهلون أن الناس يعرفون القراءة ، وأنهم يستطيعون أن يرجعوا الى كتب التفسير ، بل أن يرجعوا الى القرآن نفسه ، ويضعوا آية بجوار آية ، ويطمئنوا أخيرا الى الحق •

قال السيد رشيد رضا في تفسير هذه الآية من سورة البقرة : (ولا اشكال في عدم اشتراط الايمان بالنبي — صلى الله عليه وسلم —) •

ومع أن هذا مخالف لما قال به جمهور المفسرين في الآية ، ومع أن الايمان بالله يقتضى في ذاته الايمان بكل ما صدر عنه ، فالايمان بالكتب المنزلة ، ومنها القرآن ، والايمان بالرسول ومنهم محمد جزء من الايمان بالله ، ولن يتحقق الايمان بالله الا بالايمان بكل ذلك ، ولذلك كان الاسلام الحق هو الايمان بالله ورسوله وكتبه وملائكته ، واليوم الآخر والمسلمون لا يفرقون بين أحد من رسله ، مع ذلك نرجع الى السيد رشيد رضا نفسه لنجد أنه لا يعنى بهذه الكلمة ما فهمه منها المنحرفون •

يقول في تفسير قوله تعالى : « واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على نكاحكم امرئ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون^(١) » : (ان من مقتضى

(١) آل عمران ٨١ ، ٨٢ •

ذلك الميثاق أن دين الله واحد ، وأن دعائه متفقون متحدون ، فمن تولى بعد الميثاق على ذلك عن هذه الوحدة ، واتخذ الدين آلة للتفريق والعدوان ، ولم يؤمن باللبى المتأخر المصدق لمن تقدمه ، ولم ينصره كأولئك الذين يجحدون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويؤذونه فأولئك هم الفاسقون أى الخارجون من ميثاق الله ، الناقضون لعهد ، وليسوا من دينه الحق فى شيء) •

ويقول فى التفسير (ج ١٠ ص ٣٠٠) : (من قال : انه يؤمن برسالته — يقصد محمداً — صلى الله عليه وسلم — الى العرب خاصة لا يعتد بايمانه ، لأنه مكذب لهذه النصوص العامة القطعية مما جاء به) •

الى أقوال أخر كثيرة مبثوثة فى تفسير المنار عند مناسباتها ، وانما لفت النظر الى أقوال هذا المفسر لأن المؤلف يعتمد عليه كثيرا ، ويأخذ حتى تعبيراته ، ولكنه — مع الأسف — ييترها كما ييتر الآيات والأحاديث ليوهم نفسه أنه وصل الى غايته من خداع الناس ، وما خدع الا نفسه ، والا الذين يظنون أنه حقق ما تهفو اليه نفوسهم المريضة •

ان رسالة محمد — صلى الله عليه وسلم — عامة أرسل الى الانس والى الجن ، والى جميع الناس ، وهو خاتم النبيين والنصوص على ذلك كثيرة من القرآن الكريم ، ومن الأحاديث النبوية الصحيحة ، وهى لشهرتها تغنى عن سردها هنا ، ولكن لا بأس أن نضع أمام المؤلف بعضها مع يقيفنا بأنه لا يجهله •

قال تعالى فى سورة الأعراف : « قل يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » وقال سبحانه فى سورة سبأ :

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » وقال عز وجل
 في سورة الأنعام : « وأوحى الى هذا القرآن لانتذركم به
 ومن بلغ » أى وأنذر به كل من بلغه من الثقلين .
 وقال — وهو أصدق القائلين — في سورة الفرقان : « تبارك
 الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

فهل يمكن مع هذه النصوص الواضحة لانسان يحترم
 عقله ، ويحترم القراء أن يدعى ان الايمان بمحمد ، والايمان
 بالقرآن ليس واحد منهما شرطا فى النجاة عند الله وأن كل
 ما يطلب من الانسان الايمان بالله ، وباليوم الآخر والعمل
 الصالح ، وهذه — كما يقول المؤلف — هى أركان الدين
 الأساسية .

أما تفسير الآية على وجهها الصحيح ، فيكفى أن يرجع من
 يريد الى أى كتاب من كتب التفسير ليعرف وجه الحق فى تفسيرها
 ومهما أخذت هذه الآية على ظاهرها فلن تكون الكلمة الأخرى
 فى هذا الموضوع الخطير ، لأن فى القرآن آيات كثيرة تتعلق
 بعموم رسالة النبى محمد وتعلق بموقف الاسلام من أهل
 الكتاب ، ومن دعوتهم الى الاسلام ، وليس فيه آيات
 واحدة تبيح لهم أن يبقوا على ديانتهم الأولى معرضين
 عما جاء به رسول البشرية ، ولا جاء ذلك فى حديث صحيح ،
 حتى ولا غير صحيح .

فهل نلغى كل النصوص الواضحة الصريحة لنتمسك مع
 المؤلف بظاهر آية واحدة أبان كل المفسرين المراد منها ؟
 ودلت الآيات الأخرى على انه لا يمكن حملها على ظاهرها .
 ومن عجب أن المؤلف أخذ ينقل من تفسير المنار ، فنقل
 خمس صفحات كاملات ولكنه تجاوز عن كل ما يتعلق برسالة

محمد ومعجزته ، لانه يثبت بما لا يدع مجالا للشك دلالة القرآن على نبوة محمد وفيه هذه العبارة (وان القرآن قد بلغ مرتبة الكمال في (الهداية) فاهتدت به الأمم والشعوب •

فمن كان يؤمن بها على علم بحقيقتها لا تقليدا لآبائه وقومه فيها لا يسعه أن يؤمن بالتوراة أو الانجيل أو الفيدا أو غيرهن من الكتب المنسوبة الى المرسلين الأولين ولا يؤمن بالقرآن وهو أكملها في موضعها ، وأصحها الى من جاء به) •
وفيها أيضا أن من كان يؤمن بالله وانه الرب الخالق للعالم بأكمل نظام المدبر لأمر العباد بالحكمة والاحتكام وتأمل تاريخ محمد لا يمكن أن يدعى أن القرآن من أمور التعاليم البشرية الكسبية •

فهل يمكننا أن نسأل المؤلف لماذا تغافل عن هذا وأمثاله من كلام الامامين اللذين يعتمد على أقوالهما : محمد عبده ورشيد رضا ؟ بل ليس لنا أن نسأل لأننا نعرف الجواب ، فان من يجروء على أن يأخذ بعض الآيات ويترك بعضا لا يستغرب منه أن يأخذ من كلام الشيخين ويدع •

ولكن سوء النية هنا لا يضر المؤلف وحده ، وانما يضع في نفوس القراء الذين لا تهيب لهم ظروفهم الاطلاع على ما كتبه الرجلان ، يضع سحابة من الشك ، فهو يسيء الى شيخيه — كما يدعى — اساءة بالغة حين يبيت أقوالهما ، ويأخذ منها ما يدل ظاهره على تأييده في غرضه ، ولو نقل الكلام كاملا ، أو حتى لو لخص رأى الرجلين بأمانة لفهم الناس رأيهما على حقيقته ، ولكن كان أمامه أحد أمرين — اما أن ينقل رأيهما كاملا ، وحينئذ يلقى بكتابه في النيم ، واما أن يتنكر للأمانة العلمية ، وحينئذ

— ٤ —

ويزعم أحد المؤلفين أنه نشر رسالته الموجزة ليكون لها مايتمناه من أثر في العقول والقلوب والنفوس حتى يسود بين الناس السلام ، ويعم الوفاق والموائم ...
وعنده أن كل من يعمل على إثارة الخلاف في البلاد ، وبث روح التفارقة الخبيثة بين الناس لا يكون مخلصا في إيمانه الديني ، ولا صادقا في ولاءه الوطني .

ونحن معه فيما يقول، ولكن ما الوسيلة إلى هذا الهدف النبيل؟
كان على المؤلف أن ينحى باللائمة على كل من يعمل على
التفرقة ، سواء كان مسلما أو يهوديا ، أو نصرانيا ، وأن ينبه
لكل فريق على الأخطاء التي يرتكبها في حق الدين والوطن كما
كان عليه أن يلتزم بجانب الحق والصدق ، فلا يذهب يفسر
نصوص دين من الأديان على ما يسوله له هواه ، فإن ذلك يؤدي
إلى عكس مقصوده .

فليس مما يؤلف القلوب أن يعيِّث عابث بكتابتها ، وبأصول دينها ، فالؤلف ممن يصدق عليهم أنهم يعملون على إثارة الخلاف ، وبث روح التفارقة الخبيثة ، ذلك أنه قصر لائمه على فريق من علماء المسلمين ، وادعى في أكثر من موضع من كتابه أنهم يعملون على تمزيق الروابط ، وهذه عبارة من عباراته بنصها ، وفحصها ،

(وان الذى يملأ النفس أسى أن هذه الآية الكريمة — يريد قوله تعالى: « ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » ما تزال تفهم فهما خاطئا وهذا — ولا ريب — له أثر بالغ في تمزيق الروابط بين المسلمين، وبين اخوانهم الأقباط ، والقاء العداوة والبغضاء بينهم باسم الندين) •

فهم آية على غير وجهها — كما يزعم — ذو أثر بالغ في تمزيق الروابط والذين فهموا هذا الفهم الخاطيء انما هم (كثير) — ثم يستمر يسخر من بعض العلماء ، ويرميهم بالجهل •

فهل صحيح أن أحد العلماء استنكر أن يكون النصرى أهل كتاب ؟ حتى أرشده المؤلف الى موضع ذلك من كتاب الله ؟

أما كان واجب الحق ، والانصاف يقتضى المؤلف ألا يلقى التبعة كلها على مشايخ المسلمين وعامتهم ؟ •••

وأن يقول ولو كلمة عتاب رقيقة لأولئك الذين يعملون جاهدين على هدم الاسلام من المبشرين ، والمستعمرين وأذئابهم وأن يوجه — أن كان صادق النية — ولو كلمة رجاء الى رؤساء الحكومات المسيحية الذين يضطهدون المسلمين الخاضعين لهم ؟ •

أن أحدا لا ينكر حتى من أشد المتعصبين على الاسلام والمسلمين أن الأقباط في البلاد الاسلامية يلقون من التكريم ، ومن المعاملة المنصفة العادلة مالا يظفر بشيء منه المسلمون المقيمون في دول مسيحية ، متعصبة لمسيحياتها ، وأن الوعاظ الذين يدعون الى الاسلام في البلاد التي يذهبون اليها لا يسمحون

لأنفسهم ولا يسمح لهم دينهم أن يلجأوا - في دعوتهم - إلى
آية وسيلة من الوسائل الدينية التي يتذرع بها المبشرون ،
ويعتمدون عليها •

فهل من العدل والعقل أن تصدر دعوة للاتحاد ، والائتلاف
بين أهل الأديان ولا نشير بكلمة واحدة لكل هذه المعاول التي
لا تفتأ تهدم في بناء الانسانية ، في حين ترفع عقيرتها بأرغفهم
بعض المشايخ لآية في كتابهم - وهو فهم سليم - ذو أثر بالغ
في التفرقة ؟

ان المؤلف (الشيخ) الذي ييكي لأن أحد المشايخ قال : ان
رحمة الله لا تنال ، لم يذرف دمعة واحدة على ما امتلأت به كتب
المبشرين ، والمتعصبين من الطعن على الاسلام ، وعلى نبي
الاسلام ، وعلى السابقين الأولين من الأنصار والمهاجرين الذين
نشروا هذا الدين وآزرُوا نبيه ونصروه •
ولذلك يحق لنا أن نقول صادقين : ان صنيع هذا المؤلف
معول هدام في بناء الألفة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب
الديانات الأخرى •

* * *

والمؤلف يتلمس كل بارقة - ولو كان برقها خلبا - ليؤيد بها
دعواه ، وهو لا ينيي يحمل النصوص فوق ما تحتل ، أو يؤمن
ببعضها ويكفر ببعض •

وليس هذا الصنيع - فقط - فيما يتعلق بآي القرآن
الكريم ، بل هو يفعل ذلك بأراء الذين ينقل عنهم ، فيأخذ منها
ما يظن أنه يؤيد دعواه ، ويتجاهل ما ينقض عليه هذه الدعوى ،

وبذلك يسمى اليهم ، لأنه لو نقل آراءهم كاملة لرفع سوء ظن القارىء بهم .

فقد حاول المؤلف محاولة يائسة أن يعتمد على قوله تعالى :
(ان الدين عند الله الاسلام ^(١)) فمن أول الطريق أراد أن يبعد عن الأذهان أن المراد بالاسلام هو : هذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فكتب تحت هذه الآية وبين قوسين :
أى اسلام الوجه ثم أخذ فى شرح كلمة اسلام ، ناقلا ، فيقول :
(والاسلام مصدر أسلم ، وهو يأتى بمعنى خضع ، واستسلم ، وبمعنى أدى ، يقال أسلمت الشيء الى فلان اذا أديته اليه ، وبمعنى دخل فى السلم بمعنى الصلح والسلامة ، وبالتحريك الخاص من الشيء ومنه قوله تعالى : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ^(٢)) .

(وتسميته دين الحق اسلاما يناسب كل معنى من معانى الكلمة فى اللغة ، قال تعالى : ومن أحسن دينا ، ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) .

ثم يجىء بهذه العبارات ، ويضع تحتها خطوطا ، لينبه على أنها موضع الاقناع : وقد علم بذلك أن الحصر فى قوله : (ان الدين عند الله الاسلام) يتناول جميع الملل ، التى جاء بها الأنبياء لأنه روحها الكلى ، الذى اتفقت فيه على اختلاف بعض التكليف ، وصور الاعمال فيها ، وقد أخبر القرآن فى غير موضع أن الأنبياء كلهم كان دينهم الاسلام .

ويمضى يستشهد بآى القرآن على هذا المعنى فيذكر اسلام

(١) آل عمران . من الآية ١٩ .
(٢) الزمر . من الآية ٢٩ .

نوح ، واسلام ابراهيم ، ثم اسلام من في السموات ومن في الأرض •

وخلاصة كل هذا عند المؤلف — أن اليهودية — الآن — دين حق ، وأن دين محمد دين حق ، وهي كلها اسلام وهي كلها الدين عند الله — وليس الأمر — كما يفهم المسلمون — أن الدين الحق هو الايمان بالله ، وبالقرآن وبمحمد وهو الاسلام •

فأولا : هل يمكن في نظر عاقل ان يكون الانسان مترا بوحداية الله ، مسلم الوجه له وهو لا يؤمن بكتاب من كتبه — وهو القرآن — وبرسول من رسله — وهو محمد ؟ •

واذا كان ذلك غير ممكن ، لأن معنى الايمان بالله الايمان بكل ما جاء من عنده فكيف تكون اليهودية الدين عند الله هكذا بطريق الحصر ، وهي لا تؤمن لا بالقرآن ولا بمحمد ؟ وهذا يقال في كل دين يخالف دين الاسلام •

ان النتيجة الحتمية للايمان بالله ايمانا صحيحا ، هي الاقرار بأن الدين الذي جاء به محمد دين حق ، واذا أقر انسان بذلك وجب عليه أن يلتزم التكليف التي جاء بها هذا الدين وهذا مايطالبه الاسلام من أهل الكتاب ومن غيرهم واذن فمن تمسك باليهودية أو غيرها ، ولم يؤمن بشريعة محمد ليس مسلما ، وليس ناجيا ، ولو أخلص العمل ولو آمن بالله ، واليوم الآخر ، وليس من أتباع (الدين عند الله) •

وثانيا : المؤلف نقل كل ما أورده هنا — عن تفسير المنار للسيد رشيد رضا فيا لبيت شعري هل وقف المؤلف — وهو يطالع هذا التفسير عند هذه الكلمات أو استمر في القراءة فوجد في آخر تفسير هذه الآية قول صاحب المنار : (ولذلك كان اسلامهم — يريد أهل الكتاب — لابد أن يستتبع اتباعك فيما جئت به ، لأن من كان كذلك فهو نير القلب متوجه — دائما — الى طلب الحق فهو أقرب الناس الى قبوله متى جاءه وظهر له) *

وثالثا : لقد أغفل المؤلف في هذا الموضع قوله تعالى : (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ^(١)) — مع أنه تتبع كلمة الاسلام في القرآن — فهل صنع ذلك لأنه يعرف ان كان يعرف أن سياق الآيات في هذا الموضع ترجح تفسير الاسلام بشريعة محمد فهو يهرب من كل ما يشير من قريب أو بعيد الى ما ينقض عليه دعواه والى ما يفيد أن أهل الكتاب ملزمون بالايمان بمحمد وبالقرآن *

ورابعا : أى مانع يمنع من تفسير الاسلام في الآية الأولى بدين محمد عليه الصلاة والسلام والرسول قد بين في حديث صحيح مشهور أن (الاسلام) بنى على خمس ، منها شهادة أن محمدا رسول الله ، وفي حديث ابن عمر الذي رواه عن أبيه عمر بن الخطاب — رضى الله عنهما ، أن جبريل عليه السلام سأل النبي عن الاسلام فأجابه : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فصدقه جبريل *

(١) آل عمران . من الآية ٨٥ .

فإذا كان مشهوراً عند نزول القرآن أن الإسلام ، هو الإيمان بالله وبمحمد وبالقرآن ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وإذا كان القرآن خاتمة الكتب السماوية ، وهو يخاطب الناس جميعاً ، إذا كان كذلك كان بديهياً أن يراد بالإسلام في الآيتين : أن الدين عند الله الإسلام • ، « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » هذا الدين الجديد ، الدين الخالد ، الدين الذي كتبه القرآن ورسوله محمد ، والمدعو إليه الناس كافة •

وخامساً : من العجيب أن هذه السورة التي وردت فيها الآيتان السابقتان — وهى سورة آل عمران — أطالت الحديث عن أهل الكتاب ، وخاطبتهم ، ووبختهم على جحودهم بنبوة محمد ، وأنه ليكفى قليل من الانصاف ، ومن احترام العقول ليؤمن من يقرأ هذه الآيات : أن أهل الكتاب مطالبون بالإيمان بمحمد •

* * *

قِصَّةُ الْمَرْأَةِ

— ١ —

لم تتعرض نصوص الاسلام وشرائع للزراية ، والتحريف ،
والتهجم الحاقد في قضية من القضايا كما تعرضت في هذه القضية .

والمرأة — كما لا ينكر أحد من العقلاء — ذات رسالة سامية
في الحياة لها مكانتها في نفوس الرجال ، ولها احترامها وتقديرها ،
أما ، وزوجا ، وأختا ، وبنتا .

ولئن كانت القوانين الوضعية في مختلف العصور ، والأمم ،
عنيت بالنص على ما ينبغي أن تعامل به المرأة ، من البر ،
والاكرام ، والتقدير ، والاحترام وعنيت باعطائها حقها وتمكينها
من أداء رسالتها ، فإن الشرائع السماوية قد عنيت بكل ذلك
على أتم وجه ، وأعدله .

والاسلام — بخاصة — من بين هذه الشرائع بلغ في ذلك
ما لم يبلغه شريعة سماوية ولا قانون وضعي .

— ٦٨ —

وآية واحدة في كتاب الله تبين المدى الواسع ، والمنزل الكريم الذي وضع الله فيه بنات حواء ، وتشير — مع إيجازها — الى غاية ما تطمح اليه كل امرأة عاقلة، مؤمنة بربها ، خبيرة برسالتها، بصيرة بما يضرها وبما ينفعها ، تلك هي قوله تعالى في سورة البقرة : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

وكما نهج القرآن الكريم لأتباعه طريقة سمحة كريمة في معاملة المرأة كان الرسول عليه الصلاة والسلام يكثر من الوصاية بالنساء خيرا ، حتى روى أن آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ، ثلاث كان يتكلم بهن حتى لجلج لسانه ، وخفى كلامه ، وهو يحتضر ، وهذه الثلاث هي : الصلاة ، والرقيق ، والنساء ، وقد بدأ وصيته بالنساء بقوله : الله : الله في النساء ، وهو أسلوب يشعر بمدى اهتمامه عليه السلام بهذه الوصية .

عرض الاسلام لكل شأن من شئون النساء في قضايا كلية واضحة ، ومسائل جزئية واضحة أيضا فجاء في القرآن الكريم ، وفي السنة النبوية المطهرة ، نصوص تبين ما للمرأة وما عليها .

كل ذلك حق ، ولكن فريقا من المنحرفين والمنحرفات : يتكبرون لنصوص الاسلام ، أو يحاولون التفلّص منها : أو تحريفها حين يخوضون في هذه القضية .

فهمذ ما يقرب من عشرين عاما بلغت الجراة يعالِم أزهرى

يطرح الدين بعيدا عن قضية المرأة ، فأرسلها دون وعي أو استحياء ، انه (ليستحي أن يقم للدين في مسألة نفص يده منها) ، هكذا جاء على لسان أحد الكتاب ، وما نظن إلا أنه نادم الآن على كل ما قتله .

الدين نفص يده من قضية المرأة ، كأن الاسلام أنزل للرجال دون النساء وكأنه — كبعض النظم الوضعية للفاسدة — لا يعترف للمرأة بوجود في هذه الحياة ، وهذا

شر ما يرمى به نظام من النظم سواء كان من وضع البشر ، أو من وضع السماء ، فكيف نتهم به الاسلام ، وهو الدين الخالد الذي جاء من العليم الخير ، الحكم العدل ؟

وهذا المؤلف الذي إستحي أن يقم الدين في قضية المرأة — بادىء ذى بدء — عاد فتمسح بالدين في آخر الحديث ، فقال : على أن هناك حجة حاسمة تغنينا عن كل حجة ودليل ، هى ذلك التفويض المطلق الذى منحه الدين للناس حين قال الرسول : أنتم أعلم بشئون دنياكم ، أليست هذه الحقوق السياسية من شئون الدنيا ؟

وعجيب أمر هؤلاء الذين يفسرون الاسلام بأهوائهم كلما واجههم قائل في شأن من الشئون بنصوص تخيق بها صدورهم ، فيلجأون الى هذا الحديث : أنتم أعلم بشئون دنياكم ، وهم يعرفون أن احسن الظن بهم — المناسبة التى قيل فيها الحديث ، والمدى الذى لا يمكن أن يتعداه ما يشير اليه ، ولكنهم يجهلون ، أو يتجاهلون .

حقوق المرأة السياسية من شئون الدنيا ، كأن المرأة حين تمارس هذه الحقوق تمارسها في معزل عن المجتمع ، وتقوم بها بعيدا عن الرجال ، وكأن الاسلام لم يحد لظهور المرأة بين الرجال حدودا ، ولم يضع لتصرفاتها ووظيفتها في الحياة تعاليم ، وشرائع ، وكأن الرسول لم يقل في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري : لن يفلح قوم ولوا أمورهم امرأة ، وكأنه لم يقل : اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة .

ولكن المؤلف لا يعترف الا (بالتطور) فكل ما وصلت اليه المرأة استجابة لقانون التطور ، من نحو السفور المريب ، والاختلاط المريب هو — عند المؤلف — (الفضيلة) . فهو يقول : (ليس هناك اثم أشد ولا خطيئة أفحش من مقاومة التطور) ، وهكذا بدون قيد ولا شرط ، فلا بأس أن يكون التطور الى أسوأ ، وأن يكون مجافيا للتعاليم الاسلامية ، وللفضائل الاسلامية .

هذا في الحقيقة — أنموذج فقط للانصراف في هذه القضية ، وانما عنينا بهذا الانموذج — على قدمه نوعا — لنعدل على المدى الذي بلغه الكائدون للاسلام من بلبلة الأفكار ، واشاعة الشك في نصوص الدين ، فالمؤلف عالم ، وعالم تخرج في الأزهر الشريف ، فاذا صدر منه مثل هذا القول كان من الخطورة بمكان .

ولا أظن أنه يذهب عن أكثر هؤلاء المشرعين فيما يتعلق بالأحوال الشخصية ان جماهير المسلمين تنفر من كل حكم يضعف مستنده من الدين .

انى أعد قانون الأحوال الشخصية الذى تعمل به المحاكم الآن قانونا ميتا فى ضمائر المسلمين ، ولطالما استفتانى رجال ، وكان كل منهم يطلب الى مع توجيه سؤاله ألا أفقيه بما تسير عليه المحاكم الشرعية الآن ، فقلبه لا يطمئن به ، وقليل من

الناس من يتقبل هذه الأحكام ربما للضرورة القصوى ، وربما لأنه يستهين بعامة أحكام الدين •

ان مسألة كمسألة الطلاق ينبغي أن نلتزم فيها رأى جمهور الفقهاء فان ذلك أصون للعلاقة الزوجية ، وأنظف لها فى ضمير الرجل والمرأة على السواء ولقد رأيت من النساء من استبد بها القلق على حياتها الزوجية الطاهرة ، لأن زوجها يعاشرها بعد طلاق استند فى الخلاص منه الى رأى ضعيف من آراء بعض الفقهاء •

ثم نرى الخلط، والخبث ، والانحراف، والجراة ، والخلال، والسفه •

فهذا مستشار يعجب لماذا لا تأخذ المرأة فى الميراث نصيبا كخصيب الرجل ، وينادى بذلك ويدعو اليه وهو بطبيعة عمله يعرف تمام المعرفة النص الواضح الصريح الذى جاء فى القرآن الكريم خاصا بهذا الحكم ، كأنه يقول لنا : لا داعى للتمسك بنصوص القرآن •

ولا بأس عليه فقد سمعنا عالما كبيرا يذيع على الناس انه من حقنا أن نهمل النص اذا اقتضت المصلحة اهماله •

وهذا عالم يرى أن ضرب الرجل امرأته للتأديب (وحشية) ،
وينسى أو يتناسى أن القرآن الكريم جعل هذه العقوبة إحدى
الوسائل لإصلاح المرأة في نص لا يتحمل التأويل •

وكاتب يرى أن قول الرسول الكريم في النساء أنهم
(ناقصات عقل ودين) من الأقوال (البشعة) •

وكاتبة ترى أن القرآن لم يفسر الى الآن بمعانيه الحقيقية
وينبغي أن ينشط علماء العصر ، وأن يفسروه بهذه المعاني
حتى تأخذ المرأة كل حقوقها •

وكاتبة أخرى ترى وجوب المساواة التامة بين الرجل والمرأة ،
فاذا قيل لها : ان الطبيعة والنصوص الدينية تأبى كلها هذه
المساواة فالحمد لله سبحانه وتعالى يقول : « وللرجال عليهن درجة »
ويقول : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم
على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » ، أجابت بأن (الميثاق)
كحل للمرأة هذه المساواة ، ونسيت أن (الميثاق) قرر بعد
مبدأ المساواة ، كما قرره الإسلام ، وأنه ما كان للميثاق ، وهو
عمل حكومة مسلمة لأمة مسلمة أن يخرج عن أصول الدين •
والحق أن الكاتبات المتطرفات يستئن الى الميثاق بمثل هذا
المنطق حين يدعين أنه أعطى لهن ما لم يعطه الإسلام •
والميثاق برىء مما يهرفن •

فهل الميثاق أعطى للمرأة حق أن تطلق زوجها متى أرادت ؟
وهل الميثاق أعطى لها حق أن تتزوج من اثنين في آن واحد ؟
وهل الميثاق فرض عليها أن تقوم بنفقة زوجها وأولادها ؟

ان عيب الكاتبات المتطرفات عندنا — مع جهلهم بأحكام الدين — انهن لا يتورعن أن يطوعن لرغباتهن كل القوانين وكل النظم ، وينسين المدى الذى يستطعن أن يتساوين فيه مع الرجال لتصلح حياة الأسرة ، وحياة المجتمع •

ونعود الى قصة (ضرب المرأة) ، ذلك أن امرأة ضربت زوجها ، ورفع الأمر الى القضاء فأدانها القاضى قائلاً : ان للزوج حقاً فى تأديب زوجته جسمانياً وضربها ، فثار أحد الكتاب لذلك ، واعتبره مظهراً من (مظاهر اهدار حقوق المرأة ، والتفنى فى ظلمها) وان المرأة (لذلك تريد أن تمارس حقها السياسى لترفع الاصر والاعلال التى عليها وتقضى على الفوارق الظالمة ، المتعسفة) •

واذن ، فمن حق المرأة — عند هذا الكاتب وأمثاله ، ومثيلاته أن تؤدب زوجها بالهجر والخرب ، حتى لا تكون هناك فوارق ظالمة متعسفة ، ونسى الكاتب أو تناسى أن القاضى الفاضل انما استمد حكمه من قول الله تعالى : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان عليا كبيرا » (١) •

ولو تأمل المجاملون للمرأة ، و (المتملقون) لها و (الواقعون تحت سلطانها) هذه الآية جيداً ، ثم نظروا فى نصوص

(١) سورة النساء . من الآية ٢٤ •

الشريعة لرأوا أن هذا (الضرب) لابد منه في بعض الحالات ،
وأنه يكون في أضيق الحدود •

فالآية الكريمة بدئت بأمر يخشى منه على كيان الأسرة ،
وهو (النشوز) من المرأة طبعاً ، ثم ذكرت لهذا الداء الوبيل
ألوانا من العلاج ، لا يلجأ الى ثانيها الا بعد اخفاق أولها ،
فالوعظ ، ثم الهجر في المضجع ، ثم الضرب ، وقد فسرهُ العلماء
بالضرب الخفيف ، ثم لم يقف النص عند هذا الحد ، بل نهى
الرجال أن يكون لهم سبيل الى اىذاء النساء متى أطعنهم ،
وعدلن عن هذا النشوز الذى يهدد حياة الأسرة ، ثم ذكر
الرجال بأن الله على كبير فاذا كان منهم من يخدعه سلطانه
وقوامته على بيته ، ويظن في نفسه العلو ، والاستكبار فليتذكر
أن الله أعلى وأكبر وأنه محاسب اذا بغى وتجبر •

على أن الضرب لم يشرع الا في حالات خاصة ، ولنوع
خاص من النساء ، وقد بين الرسول الكريم أن الضرب أمر
توجيه الضرورة ، وأن على الانسان أن يتفاداه ما استطاع ،
فاذا لم يجد حيلة للاصلاح الا الضرب فلا حيلة الا اللجوء
اليه •

وينبغى أن يعترف أنصار المرأة ، بل المتطرفات من الناديات
بمسؤولية المرأة للرجل بحقيقة مشاهدة ملموسة ، وهى أن من
النساء من لا يصلحها الا الضرب ، ولولا خوفها من بطش
زوجها لفسدت ، وأفسدت وان الاسلام لو حظر على الرجل
هذا الحق لتعذر على رب الأسرة أن يقوم حقاً على بيته •

على أن المؤسفة • أن هذا الأمر ليس خاصا بالجاهلات ،
أو الساكنات في أجواف الصحارى ، وعلى قمم الجبال ، بل
أن من النساء المتعلمات المتحضرات من لا يقيمها على الجادة ،
إلا الخوف من رجلها •

وصدق الله العظيم ، ورغمت أنوف المكابرين والمكابرات ،
والمنحرفين والمنحرفات •

— ٢ —

قلت : أن أكثر المتحمسين ، والتمسعات لاعطاء المرأة أكثر
مما أوجبه الشرع والطبيعة لها • لا يحتكمون الى نصوص
الاسلام ، وشرائعه ، ولا يعينهم هذا الأمر في قليل أو كثير ،
بل أن بعضهم يعمد الى مصادرة النصوص الدينية تلميحا
أو تصريحاً ، فاذا خطر لأحدهم أن يحتكم الى نص ديني
حاول أن يتعسف في فهمه ، وإن يفسره قسراً على ما يريد ،
وإن كان فقه الاسلام ، وفقه اللغة العربية يابيان ذلك •

ولعل من تجاهل التعاليم الدينية — في هذا الشأن — تجاهلاً
خبثاً مقصوداً أن تطرح قضايا نصوص الدين فيها واضحة
وآراء المثراح والفقهاء فيها معروفة ومدعمة بالأدلة ، أقول :
تطرح هذه القضايا للمناقشة كما تطرح مسائل الأزياء ليقول
فيها من يعرف ومن لا يعرف ، بل ربما طرحت ليؤخذ فيها رأى
من لا يعرفون دون من يعرفون •

— ٧٦ —

طرحت إحدى الصحف موضوع الطلاق والحضانة للمناقشة وأخذت في كل منهما رأى بعض الناس ، فمن هم الذين أخذت آراءهم ، وسجلتها في تحقيقها الصحفى •

لقد استعرضت في قضية الطلاق والحضانة آراء خمسة من مختلف أبناء الشعب :

وقد ظهر مما قاله هؤلاء أن واحدا منهم لم يدرس دراسة دينية متخصصة ولم يستند واحد منهم الى نص من نصوص الاسلام ولا الى رأى عالم من العلماء •

وقد اقترحت بعض الحكيمات أن ينص على أن الحضانة للأُم دائما وإلى الأبد ولا يسحب منها هذا الحق الا في ظروف عسيرة كأن تتحرف أو يسوء سلوكها •

والصحيفة تفصلت فأبرزت الاقتراح كأنها تراه اقتراحا عظيما •

وما رأينا ، ولا سمعنا أن انسانا جادا ، أو هيئة تجترم عقول الناس تلجأ في القضايا الخاصة إلى غير ذوى الاختصاص فنحن لم نر — مثلا — مسألة في الطب ناقشها غير الأطباء ، ولا موضوعا في الاقتصاد تكلم فيه غير الاقتصاديين ، ولا مشكلة في الزراعة عرضت على الطلاب أو الموظفين • فهل أمر القضايا الدينية أهون من كل هذه الأمور •

لاشك ان هذا اتجاه خطير يشعر بأن هذه القضايا التي هي

من صميم الدين ليس من الضروري أن ننظر فيها نظرة دينية،
وانما ينبغي أن نستطلع فيها رأى عامة الناس لنعرف مدى
حكمهم عليها ، ولا علينا بعد ذلك ان كان الدين يوافق آراء
هؤلاء أو يخالفها وهو تجاهل غريب للدين في أمة هي — بحق —
زعيمة للعالم الاسلامى •

ومما زاد الطين بلة أن الصحيفة حين علقت على القانون
الجديد للأحوال الشخصية رأت أنه لم يحقق نصرا الا للرجل
وحده ، وذلك في معظم التعديلات •

وكان القوانين وضعت لترضى هذا الفريق ، أو ذاك ،
أو مجرد أن تكون نصرا لأحد الجنسين على الآخر ، وكأنها
لا تستمد من الدين فينبغى أن توضع بحيث ترضى
أو لا ترضى •

وما دام المقصود ارضاء المرأة فلن يجيء هذا القانون ، لأن
المرأة المصرية لا يقف طموحها عند حد ، وهى لن ترضى حتى
تتساوى بالرجل في كل شيء ، بل هى تريد أن تكون القوامة
على الرجل •

وإذا استمر الحال على هذا المنوال من ممالأة الكتاب
للمرأة ، والبعد عن فقه الاسلام فلن يطول بنا الزمن حتى
نرى المرأة تطالب بحقوقها في تعدد الأزواج •

وانا لا أدري لماذا لا يرفع هؤلاء المطالبون بالمساواة التامة

**أيديهم الى الله تعالى يتضرعون اليه ، ويطلبون منه أن يتفضل
على المرأة فينبت لها لحية وشاربا ؟ !**

ولا حاجة بي أن أقول : انه ليس من حق هيئة من الهيئات
أن تشرع للناس في أمور دينهم مالم تدرس هذه الأمور
دراسة واعية مستتيرة ، وما لم تأخذ رأى رجال الدين فيما
تدرس •

فاذا حدث ، وتعدت هيئة طورها وقالت في شريعة الله بما لا
تؤيده أصول هذه الشريعة ، فانها بذلك ترزعزع الثقة فيها ولن
يستمتع أحد لما تقول •

وقد قرأت أن دولة من الدول سنت تشريعا يحاكم من
يطلق دون اذن القاضى أو يتزوج على زوجة اخرى وهذا
تجاهل للحرية الدينية التى منحها الاسلام لأتباعه ولن يشفع
له أن رأيا قديما من عالم أو فقيه قال به ، فما كل ما قيل يؤخذ
به اذا لم يكن دليله قويا واضحا •

ومن العجيب أن نجد بعض الدول الغربية تميل الى نظام
تعدد الزوجات ويرى فيه بعض كتابهم الحل الوحيد لمشكلة
زيادة عدد الاناث عن الذكور ، فى حين نجد حكومة مسلمة
تقيده •

ونحن لا ندعو لتعدد الزوجات ، ولكننا لا نحب أن يقف
أحد فى سبيل حرية المسلم وتبعة عمله عليه ، ويكفى أن نحصره
بالأضرار التى قد تعود عليه اذا أقدم على التعدد وهو غير
قادر أن ينفق على أسرته ، ثم له بعد ذلك ما يشاء •

كما ندين بشدة أولئك العلماء الذين ينزلون أرضاء (للبعض) فيقولون ان تعدد الزوجات لا يكون الا عند الضرورة ، فليس في الاسلام هذا الشرط . بل ان الاسلام يبيح للرجل أن يتزوج على امرأته متى أنس في نفسه القدرة على الانفاق والقدرة على العدل ، ولقد نعلم أن عددا لا يحصى من الصحابة ومن سلفنا الصالح عددوا دون ضرورة .

وقد سبق ان قلت ان قضية المرأة من بين القضايا اتسمت بتكر غريب لأحكام الاسلام ولعل أظهر الموضوعات في ذلك موضع (تعدد الزوجات) فمئذ عابنا متعمبو الغربيين، بهذا التعدد ، ونحن نحاول أن نظهر الاسلام أمامهم بمظهر البرىء من هذه الوصمة التي يزعمونها ، ومئذ ظهر سلطان المرأة ونحن نجاهلها على حساب الدين في هذا الموضوع .

وأكثر الذين تكلموا في موضوع تعدد الزوجات أعطوا لأنفسهم حق المجتهد ولو كان كثير منهم لا يعرفون من الاسلام أكثر مما يعرفه المبتدئون من الطلاب .

والشبهة التي عشت في رموسهم هي الجمع بين آيتي النساء الأولى التي تقول : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ، والثانية التي تقول : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل » .

ولهذه الشبهة ذهب بعضهم الى أن الشريعة الاسلامية حرمت التعدد تحريما باتا ، وذهب بعض المحترفين من الصحفيين الى أن ذلك رأى كثير من الفقهاء .

ولعل القول يطول لو أعدنا ما قيل في الرد على هؤلاء ،
ولكن أمرا واحدا لا أدري كيف طووا أنفسهم عليه ، ذلك أن
النبي وأصحابه وتابعيهم والعلماء منذ الصدر الأول الى يومنا
هذا يقرءون هاتين الآيتين ، ويجيزون التعدد قولاً وعملاً •

فهل فقه بعض المعاصرين ما لم يفقه علماء المسلمين مدى
أربعة عشر قرناً أو تزيد ، وأن واحداً من أولئك العلماء
الاعلام ليعدل أقل تلاميذه علماً عشرات • بل مئات من هؤلاء
الذين يفتنون بغير علم •

ومهما انكرنا من قدرة أعداء الاسلام فلن نستطيع أن نفكر
شيئاً واحداً ، هو أنهم استطاعوا أن يشيعوا البلبلة في فهم
النصوص ، وأن يشككوا بعض ضعاف الايمان في تعاليم
دينهم ، حتى تعدى ذلك الى علماء الدين أنفسهم في قضية
المرأة •

ولا تزال الدعوة مستمرة ، وحادة ، ومنحرفة في قضية
المرأة ، وآخر ما قرأناه مقالة لاحدى الكاتبات تدعو فيه الى
الاختلاط التام بين الفتيان والفتيات في كل مرحلة من مراحل
الحياة ، فعلى الأسرة أن تزيل رواسب الحريم ، وأن تجمع
بين الفتى والفتاة منذ الطفولة في صداقات عائلية ، وتمكن
لهذه الصداقات ، وبذلك — كما قالت — يضمن لبنات السادسة
عشر المتفتحة في مجتمعنا المتجانس انطلاقةً سوية بلا
أزمات ، ولا تعقيدات •

وهكذا من أجل (عيون) التعقيدات المزعومة ينبغي أن نترك

الأمر فوضى بين الفتيان والفتيات منذ الصغر ، كأنه لا يكفى الاختلاط فى الجامعة ، بل ينبغى أن يكون فى المدرسة الابتدائية والاعدادية والثانوية ، وفى البيوت ، وفى المصنع والحقل وفى كل مكان وزمان •

وهذا آخر فلسفة المرأة المثقفة ، وهذا علاجها الحاسم للأزمات التى تتعرض لها الفتاة فى سن المراهقة ، أن نتركها تختلط بالشبان منذ الصغر •

وهذا كلام بطبيعة الحال لم يحسب أى حساب للآداب الدينية ، ولم تلق صاحبته أى بال للنصوص القرآنية ، ولا شك أنها تعرف هذه النصوص ولكنها عن عمد وعن قصد تريد أن تفهمنا أن علاج بناتنا ، وأبنائنا فى غير السير على مقتضى هذه النصوص •

ولعل من العيب أن أشرح لهذه الكاتبة ولغيرها ماجناه علينا ، وعلى غيرنا الاختلاط بين الفتيان والفتيات ، ولكن الذى ينبغى أن تعيه الكاتبة جيدا أن الأزمات التى تتعرض لها الفتاة مهما كانت قاسية هى خير من أن تفقد الفتاة من الصغر شرفها •

والعجب من هؤلاء الصائحين ، والصائحات لا يحلو لهم ولهن كلام الا فى القضايا التى يكون فى الدفاع عنها مخالفة لقواعد الاسلام ، أما حين تكون للمرأة قضية عادلة تؤيدها النصوص الصريحة فى الدين ، فانهم ، وانهم لا يلتفتون لهذه القضية ، ربما لانه ليس فيها ما يشبع الرغبة فى التكرار لشرائع الله •

المرأة في الريف — وبخاصة ريف الصعيد — لا تنال حقها الشرعى من ميراث أبيها أو أمها ، أو أخوتها ، وإذا تطلعت واحدة الى أخذ ميراثها جرت المساومات والمساورات ، وعقدت المجالس العرفية لغرض واحد هو أن تقتازل المرأة عن نصيبها كله ، أو بعضه ، وينتهى كل ذلك الى أن تأخذ (ترضية) قد تكون خمس حقها أو أقل ، ثم بعد ذلك يجفوها أخوتها ، ويعتبرونها خارجة عن الأسرة ، ولا فرق في ذلك بين الاخوة الجيلة ، والأخوة المتعلمين ، وانى لأعرف من ذلك أثسياء كثيرة تدمع لها العين ، ويحزن لها القلب ، فبينما تعاني بعض النساء آلام الفاقة والحاجة ينعم أخوها في ميراثها ، وربما كان رجلا نال من العلم والثقافة نصيبا وإذا حدث واهدى لها شيئا في المواسم والأعياد اعتبر ذلك تفضلا منه .

هذه ظاهرة لا تخفى على أحد فلماذا لا يجند المتحمسون والمتحمسات لحقوق المرأة أقلامهم ، وجهودهم لهذه القضية ؟ ولماذا لا يطالبون المسؤولين — كما يطالبونهم بأن يحرموا تعدد الزوجات — أن يسنوا عقابا رادعا لكل من يحرم أخته من ميراثها الشرعى ؟

اننا نقرأ في أكثر من صحيفة ، ولأكثر من كاتب اقتراحا بأن تتساوى المرأة مع الرجل في الميراث ، ولكننا لا نقرأ اقتراحا بأن تأخذ نصيبها حين يحرمها أهلها منه .

ان في الاقتراح الأول انكارا صريحا لاية محكمة من كتاب الله ، وفي الاقتراح الثانى تنفيذ لنص محكم من كتاب الله ، فإى الأمرين أولى بأن نقف وراءه ، وأن ندافع عنه ؟

لأننا لا نريد أبداً — كما قلت في مبدأ هذا الحديث — أن
نبخس المرأة حقاً من حقوقها التي شرعها لها الإسلام ، ولكننا
نعارض بكل قوة أية دعوة تهدف إلى أن نعارض نصاً من
نصوص ديننا ، ومهما كثرت الداعون والداعيات إلى هذا الذي
تعارضه فإن ذلك لا يثنيها أبداً عن أن نجهر بكلمة الدين ، وأن
ندافع عنها ، وأن نبينها للناس : « قل لا يستوى الخبيث
والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

**وأنه لدين في عنق كل مسلم أيا كان مكانه في الحياة أن يدفع
عن دينه كل ضيم يحاول أن يناله من هؤلاء الذين لا يبالون
أين تقع معاولهم من بناء الإسلام .**

*** * ***

التفسير العصري للقرآن

جلال القرآن وقديسيته ، ومنزلته المنفردة في البلاغة والفصاحة . كل ذلك يقتضي ممن تحدثه نفسه بتفسير آياته أن يأخذ لهذا الأمر أهبتة ، وأن يعد له عدته وذلك يتطلب منه أموراً كثيرة لعل من أهمها :

١ - علماً واسعاً بلغة العرب ، واحاطة شاملة بمختلفة اللهجات العربية ، وفقها واعياً لمفردات اللغة وتراكيبها .
ولذلك كان السلف الصالح - رضوان الله عليهم - يتخرجون غاية التخرج من القول في التفسير، فقد روى أن سيدنا أبا بكر (رضي الله عنه) سئل عن معنى كلمة (الأب) في قوله تعالى : « وفاكهة وأبا » من سورة (عبس) فأمسك عن الجواب مخافة أن يكون لهذا اللفظ معنى لا يعرفه أبو بكر وقال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني أن قلت في كتاب الله برأيي .

ونقل أنس (رضي الله عنه) قال : (سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه - قرأ هذه الآية - يريد الآية السابقة - ثم قال : كل هذا قد عرفناه ، فما ذب ؟ ثم رفع عصا كانت بيده ، وقال : هذا لعمر الله المتكلف ، وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب ؟) .

ثم قال : (اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب ، وما لا قدعوه) •

وكان عبد الملك بن قريب المشهور بالأصمعي — وهو من كبار رواة اللغة — يأبى أن يفسر كلمة وردت في القرآن ويقول إذا سئل عن كلمة قرآنية : هذه في القرآن •

وكل هذا احتياط وحذر منهم ، وأن لم يمنع ذلك من القول في التفسير على أوسع نطاق ، غير أن هذا التحفظ من بعض الصحابة وكبار العلماء كان دائماً أمام أعين المفسرين ، فكان الفذ منهم لا يشرع في تفسير القرآن حتى يشعر من نفسه القدرة عليه ومع ذلك يتوقى بكل جهده عثرات الرأي ومزلة القدم •

ولقد كنت قرأت منذ زمن طويل أن (ابن الأنباري) رحمه الله كان يحفظ ثلثمائة ألف شاهد على ألفاظ القرآن ، وهذا كان دأبهم جزأهم الله عن كتابه خير الجزاء فقد كان العالم منهم لا يكاد يفسر معنى الكلمة حتى يتبع تفسيره بشاهد من كلام العرب ، وأن هذا المعنى لهذه الكلمة كان معروفا عندهم •

وبسبيل من ذلك أن يكون من يتصدى للتفسير ذا خبرة واسعة ، ودراية تامة بالأساليب البيانية التي تزخر بها اللغة العربية ، فان ذلك يجنبه الخط على غير هدى ويأخذ بيده في طريق مأمون العثرات ، ومن هنا قال الامام عبد القادر الجرجاني امام البلاغيين يعيب على بعض المفسرين الذين

عاصروه أو سبقوا عصره : (ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن توهموا في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها ، فبفسدوا المعنى بذلك ، ويبتلوا الغرض ، ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة ويمكن الشرف •

وناهيك إذا هم أخذوا في ذكر الوجوه ، وجعلوا يكثر في غير طائل ؟

وهناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه ، وزند خلافة قد قدحوا به ، ونسأل الله العصمة والتوفيق (١) •

٢ — حفظ القرآن الكريم ، والاحاطة بطرقه في البيان ودراسة السنة النبوية ومعرفة ما تضمنته من بيان للقرآن وللأحكام الشرعية •

ذلك أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، ومن الخطأ أن يشرح مفسر آية في معنى دون أن يكون على معرفة تامة بكل الآيات التي تضمنت هذا المعنى ، أو أشارت إليه • والسنة النبوية بينت كثيرا من آيات القرآن ، وهذا مصداق قوله تعالى : « وانزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلمهم يتفكرون » •

٣ — القدرة على حسن اختيار الآراء ، والمعرفة بمصادر الأدلة حتى يكون ترجيح رأى على رأى سليما ومقبولا •

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٣٦ •

ولا حجر على أحد أن يختار ما شاء • ما دام الدليل يدعمه ،
لكن الشيء الذي يبدو عجيباً أن يعتمد باحث الى اختيار الرأي
الضعيف في كل مسألة يعرض لها متجاهلاً ما وجهه العلماء
السابقون له من نقد وتفنيد ثم يكون العجب أشد حين لا يقيم
على اختياره أى دليل مقبول •

وهذا الصنيع يدلنا في الغالب على أحد أمرين :

١ — أما على فقدان الثقة بجمهرة العلماء السابقين الذين
قضوا أعمارهم في معرفة لغة العرب ، ومقاصد القرآن الكريم ،
واحتاطوا أشد الاحتياط فيما دونوا من آراء •

٢ — وأما على شهوة خاصة تحمل مثل هذا المعرض عن
الصحيح من الآراء على أن يظهر بمظهر المخالف لما اتفقت
عليه كلمة جمهرة العلماء والباحثين • ومن شيمة العلماء أن
يعترفوا لغيرهم بالفضل ، وأن يطلبوا الحق حيث وجدوه ،
والا يعرضوا عن الرأي المدعم بالأدلة ويعتنقوا الرأي الذي
لا يقوم عليه دليل ، وأن تكون الحكمة ضالتهم يبحثون عنها ،
ويجهدون في سبيل الوصول إليها •

وقد روى عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — أنه
قال : والذي لا اله الا هو ، ما نزلت آية في كتاب الله الا وأنا
أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب
الله منى تناله المطايا لأتيته •

فما بالنانرى أناسا ليسوا على علم بكتاب الله ، ولا يكادون

يعرفون في آية واحدة فيمن نزلت وأين نزلت ، وبين أيديهم كتب التفسير المنقول والمقول تسول لهم أنفسهم أن يعرضوا عن كل ذلك ، ويحبون أن يظهروا أمام القراء بأنهم أعلم بكتابات الله من كل من سبقوهم ؟

من الممكن أن يضيف المفسر العالم الى ما ذكره المتقدمون فهما جديدا لآية من الآيات ، ولكن البعيد أن يخطئ جمهورهم في فهم آية كثر الجدل والنقاش حولها ، وكان ما تضمنته من المسائل الأصلية في الاسلام كمسألة الجنة والنار — مثلا — أو كمسألة الحلال والحرام •

ولست أريد بذلك أن أدعو الى الوقوف عند كتب التفسير المعروفة ، والتي كتبها أفاضل العلماء في القديم ، ولا أن أصد أحدا عن التطلع للتفسير ، بل انى أريد أن أدعو كل مسلم تحفزه همته الى هذا العمل أن يتبين أولا : هل هو من رجاله ؟ عليه أن يعرف مدى إمامه بلغة العرب ، ومدى فهمه لأسرارها وتذوقه لأساليبها ، ومدى معرفته بالسنة النبوية ، وأن يضع إمامه — دائما — قول النبي صلى الله عليه وسلم (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار) •

كما أنى لست أقصد بهذا الكلام انساها بعينه بل انى — دون موارد — أقصد الجفم الغفير ممن فسروا القرآن في عصرنا الحاضر حتى أولئك الذين يرفعهم بعض الفاس الى مرتبة الاجتهاد ، فاني عرفت بعضهم وقرأت عن بعض آخر فلم أجد عندهم من عدد التفسير الامعرفة يسيرة بلغة العرب ،

تتضاءل أمام ما كان عليه أولئك المفسرون القدماء من أمثال
الفخر الرازي والزمخشري وغيرهما ، ووجدت عند بعضهم من
الجرأة على كتاب الله ما ضل به وأضل .

وربما قيل أنك هولت في الأمر ، وأن القرآن نزل بلسان
عربي مبين ، وأنه لا يحتاج في تفسيره إلى أكثر من الإمام
اليسر بلغة العرب ، وأقول كما قال البوصري : (ومن شدة
الوضوح الخفاء) نعم . الفاظ القرآن عربية واضحة ، ولكن
مقاصد القرآن تحتاج في الوصول إليها إلى دراسة واسعة لهذه
الألفاظ ، وإلى أفهام ثاقبة ، وإلى ما قدمت الحديث عنه ، ثم
من الألفاظ ما وضع لأكثر من معنى واحد فكيف يدرك المراد
منه من لم يكن عارفا بلغات العرب ؟

بعد كل هذا أرى من الواجب أن أعرض لأبحاث نشرتها
بعض المجلات المصرية تناول فيها الكاتب تفسير بعض الآيات
القرآنية ، وذكر أنه يقوم بمحاولة لتفسير عصرى للقرآن .

وقد اختلفت الآراء عند ما بدأ الكاتب ينشر هذه الأبحاث
فقال قائلون : انه ينبغي السكوت عنها ، وأن من الضرر البالغ
الرد عليها ومناقشتها ، ذلك أنها بعثت بعض آراء قديمة ماتت ،
ولم يعد أحد من المسلمين يدين بها ، وفي الجدل حولها ما يذكر
المسلمين بها ، وهم في غنى عن بلبلة الأفكار ، وزعزعة العقيدة .

وقال آخرون : هذا حق ، ولكن بعض الناس ممن ضلّت
ثقافتهم الدينية أخذوا يدينون بها ، بل بعضهم جعل يبشر بها

ويشيد بكتابها فمن الواجب أن يبين للناس مدى صحة هذه الآراء ومدى ضعفها .

حقيقة قد أقيمت الأدلة الكثيرة في الماضي على بطلانها ، ولكن الكاتب لم يقتصر على بحث هذه الآراء بل جعل يضيف إليها حواشي توهم الناس أن لهذه الآراء نصيباً من الصحة .
قال هؤلاء : وربما كان في سكوت العلماء عنها ما يؤكد صحتها .

وقد ملت الى هذا الرأي فكتبت هذه الكلمات ، وقبل ان أتناول ما سطره الكاتب أود أن أقول اننا لا نحاول أن نحد من حرية أحد ولا أن نسيء الى أحد وانما نريد النصيحة للمسلمين ، فأما الكاتب فأمره الى ربه ، فهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وهو الذي يقول في محكم كتابه : « وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » ، ورسوله الكريم يقول : (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى) .

لقد وقفت طويلاً عند تفسير لقوله تعالى : « مثل الجنة التي وعد المتقون ... الآية » وعجبت لأمر :

أولها : ان الكاتب حمل الآية بادىء بدء — على التشبيه ، ولكنه لم يذكر لنا أين المشبه به ؟ ويبدو أنه لم يدر بخلافه ان هنا مشبهاً به .

وحليفنا على أنه أراد التشبيه أنه نظر ما في الآية بما يقوله

الرجل لطفله الذى يسأله عن اللذة الجنسية ، بعد أن يعجزا عن توصيل المعنى اليه ، فيقرب اليه الأمر على سبيل ضرب المثل ويقول : انها شئ مثل السكر •

ان جمهرة المفسرين يقولون ان (المثل) هنا معناه الصفة أى : صفة الجنة التى وعد المتقون كذا وكذا •
وبعضهم حاول أن يقدر فى الآية تشبيها ، وذكروا فى ذلك وجهين :

الأول : عن الزجاج حيث قال : (مثل الجنة جنة تجرى فيها أنهار كما يقال : مثل زيد رجل طويل أسمر ، فيذكر عين صفات زيد فى رجل منكر لا يكون هو — فى الحقيقة — الا زيدا) •

والثانى : عن الزمخشري فهو يرى أن المثل به مذكور حيث قال : كمن هو خالد فى النار ، مثبه به على طريقة الإنكار ، وعبارته : (كأنه قيل : أمثل الجنة كمن هو خالد فى النار أى كمثل جزاء من هو خالد فى النار ... هو كلام فى صورة الإثبات

ومعنى النفى والإنكار ، ونظيره قول القائل :

أفرح أن أرى الكرام وأن أورت ذودا شمائلا نبلا

هو كلام منكر للفرج برزينة الكرام ، وورثة الذود مع تعرية عن حرف الإنكار ومثل الجنة صفة الجنة العجيبة الشأن ، وهو مبتدأ وخبره كمن هو خالد •

وقد علق عالم من علماء أهل السنة عرفه بتتبعه لآراء الزمخشري وردها علق على هذا التفسير بقوله : قال أحمد —

هو قاضي الاسكندرية المتوفى سنة ٦٨٣ هـ المعروف بابن المنير :
(كم ذكر الناس في تأويل هذه الآية فلم أر أظلى ولا أظلى من
هذه النكت التي ذكرها) •

أما الأمر الثاني : — وهو أمر لا يكاد العجب منه ينقضى —
فهو ان الكاتب لم يعرض لأى آية أخرى في القرآن جاء فيها
وصف الجنة ونعيمها ، بل اقتصر على هذه الآية التي جاءت
فيها كلمة (مثل) ليصح له أن يقول ان المسألة مجرد ضرب
مثل • وكل نصيب الآيات الأخرى منه اشارة عابرة وان كانت
واضحة الدلالة ، يقول فيها : (وكل ما جاء في الجنة والجحيم
ألوان من ضرب الأمثال ، وألوان من التقريب وألوان من الرمز)
وهو كلام ملقى على عواهنه ، لا يسنده أى دليل ذلك ان جميع
العلماء متفقون على أنه اذا أمكن الكلام على الحقيقة لا يعدل
عنها الى المجاز ومعروف كذلك أن كل مجاز لابد له من قرينة
مانعة من ارادة المعنى الحقيقي •

وفي القرآن الكريم عشرات الآيات في وصف الجنة والنار ،
وهي آيات صريحة لا لبس فيها ولا غموض ، وليست فيها
آية قرينة تصرفها عن معانيها الحقيقية ، نأخذ — مثلا قوله
تعالى — « وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون ،
لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون »^(١) وقوله سبحانه :
« على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان
مخلدون بأكواب وأباريق وكاس من معين ، لا يصدعون عنها

(١) الزخرف ٧٢ ، ٧٣ •

ولا ينزفون وفاكة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون
وحور عين ، كأمثال الأولو المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون » (٢)

وقوله تعالى في وصف النار : « فالذين كفروا قطعت لهم
ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في
بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا
منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » وقوله
سبحانه : « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما
نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » •

الى آيات كثيرة تشبه هذه الآيات في وضوح الدلالة
وصراحة العبارة ، فما الذي يحملنا على أن نتعسف في تفسير
اللفظ ، ونجعل من الواضح الجلي رمزا وإيماء ، وندعى أن
ذلك من قبيل ضرب المثل ، بل مجرد ضرب مثل ، وليس في كل
هذه الآيات إشارة واحدة من بعيد أو من قريب تسمح لنا
بهذه الدعوى ؟

ولكن الكاتب قد أجاب عن هذا السؤال ، فقال : (هذا أمر
مستحيل لأن الجنة والجحيم أمور غيبية بالنسبة لنا لا يمكن
تصويرها في كلمات من قلموسنا) فليست هذه — إذن —
أوصافا حرفية لأن هذا مستحيل •

والعجيب من الكاتب : أليس في مقدور الله ، أن يصف لنا

الأمور الغيبية بكلماتنا هذه القاموسية ؟ أكل غائب عنا عجز القرآن عن تصويره بكلماتنا ؟ وإذا كان القرآن صور لنا — فعلا — هذه الغيبيات ، بألفاظ واضحة نفهمها ، فهل من مقتضيات فلسفتنا أن نقول له انك عجزت عن هذا التصوير واننا سنتبرع لك من عندنا فنفهم انك تقصد الرمز والایماء ؟

اننى أترك لأى قارئ أن يحكم على هذا الصنيع وسيجد أن الكاتب قد ألغى دلالات اللغة الأصلية ، وقد فتح بابا واسعا للدعاء ، ولحمل كل لفظ على ما يريد أن يفهم ، ولو أبحنا ذلك لمجرد هذه الحجة لمسا استطعنا أن نؤمن بمقتضية غيبية على حقيقتها .

ان فى الجنة انهارا من لبن ، وانهارا من عسل مصفى ، وانهارا من خمر لذة للشاربين ، أليست هذه كلمات واضحة ، وعبارات سليمة لا غموض فيها ؟ أليست فى الإيمان بما تدل عليه ما يتنافى مع العقيدة الصحيحة للمسلم ؟ أينقص من قدر ثواب المؤمنين أن يجدوا فى الجنة هذه الأنهار ؟

لا أظن شيئا من ذلك يطوف بخلد أحد ممن يؤمن بالله ورسوله وبالحشر والجنة والنار ، وإذا كان الله سبحانه أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر — كما جاء فى الحديث الصحيح — فإن وراء هذه الأنهار ، وهذه النعم الحسية ذلك الذى أعدّه الله ، ولا تتنافى بين ما بينه

الله في القرآن من ألوان النعيم وبين ما أعدّه من نعم أخرى لم تخطر على قلب بشر •

والعجيبة الثالثة التي جرت على قلم الكاتب — ولست أظن أنه ألقى اليها بالا — : ما جاء في تعليقه على قول الله تعالى : « لهم من فوقهم ظلال من النار ومن تحتهم ظلال ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون ^(١) » •

من قوله : (ها هو ذا يبين حقيقة جديدة ، فيقول انه يورد الألفاظ للتخويف) ويكرر هذا في موضع آخر فيقول عن الله سبحانه : « فقد حذرنا وخوفنا بالألفاظ المجلجلة » •

واذن فهم مجرد ألفاظ ، لا حقائق وراءها ، وهذا غاية مانعيب به انسانا مثلنا أن يهددنا بالألفاظ التي لا يحقق شيئا من معانيها ، والله سبحانه قد أنكر على المؤمنين الذين يقولون مالا يفعلون : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ^(١) » وليس يشفع للكاتب أن يقول بعد ذلك أن التخويف ليس على غير أساس فيكفى أن ينسب الى الله سبحانه أنه يخوف بالألفاظ المجلجلة ؟

ولماذا لا يخوفنا الله بما تدل عليه هذه الألفاظ ؟ وهو الأمر الطبيعي المعقول ، ليكن ما يلقيه الناس يوم القيامة أشد هولا مما تضمنته هذه الآية ، ولكن ما جاء فيها أمر رهيب حقا ، وما وراءه من أنواع العذاب تضمنته آيات آخر •

(١) الزمر ١٧ •

(٢) الصف ٢ ، ٣ •

والكاتب — قيما يبدو من كلامه — يؤمن بالجشر الجسماني
 وإذا كان كذلك فلا بد أن يكون المؤمنون- في مكان والكافرون في
 مكان آخر ، وبطبيعة الحال سيكون مكان المؤمنين مريحا ، ومكان
 الكافرين متعبا ، والقرآن الكريم قد وصف لنا المكانين ، وعلينا
 أن نؤمن بهذه الأوصاف لأننا لو فهمناها على أنها رموز لحالات
 نفسية كان علينا أن نتصور صفات لهذه الأمكنة ، ضرورة أنه
 لا بد لكل مكان من صفة ، وحينئذ سنترك ما وصف به القرآن
 الأرض التي يحشر كل من الفريقين عليها ، وتخيلنا لها أوصافا
 من عندنا وليس وراء ذلك عبث •

ثم ان الكاتب تبع بعض الكاتبين الآخرين في ادعاء أن الله
 سبحانه لما كان يخاطب (البدوى البسيط) الذي كل أمنيته —
 وهو يعيش في هجير الصحراء — ان يعثر على نبع ماء عذب ،
 كان يعده جنات تجري من تحتها الأنهار •

كأن القرآن الكريم لم ينفذ الا لهذا البدوى البسيط ، وكأن
 الماء لا قيمة له الا عند من يعيشون في هجير الصحراء ، وأخيرا
 كأن القرآن (يتعلق) هؤلاء البدو ليؤمنوا بالرسالة الجديدة •

ان القرآن الكريم أنزل على نبي عربي ، ولكنه سيبقى خالدا
 يخاطب جميع الأمم وجميع الأجناس حتى الذين يعيشون في جزر
 وسط الأنهار العذبة ، وان الماء حياة كل شيء كما جاء في القرآن
 الكريم ، فليست حاجة البدوى اليه بأمس من حاجة غيره ، وإذا

تصورنا أن البهوى سيكون شديد الحاجة للماء في الدار الآخرة
فنحن لم نفقد هذا التصور بالنسبة لأي انسان آخر •

والكاتب يعتبر الأنهار من العسل ، والأنهار من الخمر
(سذاجات) لأنه يقول انه فهمها كذلك في شبابه ، ولكن حين
كبر أدرك أن المراد الرمز والايماء ومعنى ذلك أن كل من يفهمها
على أنها حقائق انسان ساذج ، وكفى بذلك ضياعا •

ويتمسك الكاتب بقول الله تعالى في أهل النار : « لكل ضعف »
مدعيا أن ذلك من الأدلة على أن النار ليست هي النار إذ : (ان
أمامنا اثنين يتعذب الواحد منهم ضعف الآخر ، مع أنهما في نفس
المكان ، ومعنى هذا أن العذاب في القلب وليس في المكان) •

فالكاتب لا يتصور أن يكون اثنان في مكان واحد ، ويتعذب
أحدهما ضعف الآخر ، مع أنه في نفس المكان يتصور وقوع
حوار بين أهل النار ، ويقول : (وفي مثل نارنا لا يمكن أن يجري
حوار بين اثنين يحترقان) واذا فنار الآخرة غير نارنا ، والكاتب
يعترف بأنه سيكون فيها مالا نتصوره في نارنا ، فهل يبعد أن
يتعذب اثنان عذابين مختلفين في مكان واحد منها ؟

ثم من قال ان الجميع في مكان واحد ؟ وأن النار دركات وليس
من المسير أن يقع حوار بين قوم في دركة ، وآخرين في دركة
أخرى ، والقرآن الكريم يحدثنا أنه سيكون حوار بين أهل الجنة
وأهل النار •

على أننا نتصور - وبكل وضوح - أن يكون اثنان في مكان واحد ، ويشعر أحدهما بالعذاب ضعف شعور الآخر به ، كما نتصور حوارا يقع بين اثنين يعذبان ، يشكو أحدهما شدة العذاب فيجيبه الآخر بأنه هو الذي أسرف على نفسه في الدنيا ، فاستحق هذا العذاب في الآخرة • وكيف ينكر مسلم هذا الحوار ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ان ذلك لحق تخاصم أهل النار » • نسأل الله سبحانه أن يجنبنا الزلل •

* * *

مِنْ عَجَازِ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ

في العدد ١٩٣ من مجلة (المجتمع) التي تصدر بالكويت نشر بحث بعنوان : (من أعجاز النظم القرآني في شهادة شاهدي الميت المغترب) تناول فيه الكاتب بالتفسير والتعليق قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَنْتَهِمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْإِثْمِينَ فَمَنْ عَثَرَ عَلَيَّ أَنْهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَأَنَّ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولِيَّانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدِينَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ^(١) .

ومع ما أعرفه من حسن قصد الكاتب الفاضل ومع ما يبیدو في بحثه من محاولة اثبات الاعجاز لهذه الآيات بسبب مواعمة

الفاظها للقضية التي نتحدث عنها... أرى لزاما على — وفاء
بحق كتاب الله تعالى — أن أتف معه ورقة متأنية في موضعين :

الأول : وحسن لهذه الآيات الكريمة •

الثاني : منهجه في تفسيرها •

أما عن الأول فنقد وصف الآيات الكريمة بهذه الأوصاف :

١ — قد كثرت فيها الخروج على مألوف النظم العراني خروجاً
متعمداً • فهناك تقديم وتأخير بحيث تبدو الجمل وكأنها يدفع
بعضها بعضاً ليزيله عن موضعه قسراً •

٢ — ثم هناك هذا العسر الشديد في النطق بالكلمات ، شدها
إلى اللسان ، وجمعها عليه •

٣ — ونقرأ الآيات مرة ومرة فإذا هي كعهدنا بها تتأبى على
اللسان وتكاد تمسك به •

ولا يشفع له أنه قال بعد هذه الفقرات اننا حين نقرأها ترتيلاً
نجد (كلماتها متناغمة يأنس بعضها ببعض ، ويتجاوب بعضها
مع بعض وإذا هي لينة اللمس عذبة المذاق ، وإذا هي على الأذن
لحن موسيقى علوى النغم ، يهز القلب ويمسك بمجامعه) •

أقول : لا يشفع له هذا لأن هدفه الذي يريد الوصول إليه
هو اثبات المناسبة التامة بين نظم هذه الآيات وبين ما تعالجه
من موقف غريب مضطرب . وهذه الأوصاف الأخيرة تنقض عليه
غرضه ، ولذلك نجد يقول بعد ذلك :

(ومن أجل هذا أيضاً كان تنازع الكلمات القرآنية فيما

بينها حتى لكانها هي هذه الجهات المتنازعة المتخاصمة في مسارب نفوسها ، وفي مجرى خواطرها) •

ففرى أن الكاتب لم يترك حصة من الصفات التي تخل بفصاحة الكلام الا كاد يثبتها ويؤكددها ولو كان ينظر الى ما وصفها به عند الترتيل ما قال شيئا من ذلك بل وما تحقق له هذا الذي يجري جاهدًا ليدركه •

فالآيات على غير مألوف النظم القرآنى ، فيها من التقديم والتأخير ما يجعل الجمل يدفع بعضها بعضا والكلمات متزاحمة متواكبة ، وهي تشبه في اضطرابها هذا الاضطراب في النفوس المتخاصمة المتنازعة •

وكنيت أود أن يراجع الكاتب ما أجمع عليه علماء البلاغة من أن تنافر الكلمات يخل بفصاحة الكلام ، ومن ثم يخل ببلاغته ، وان معنى هذا التنافر هو ثقل الكلمات على اللسان وعسر النطق بها ، وانه من الخطأ والخطر أن يوصف كلام ، بل كلمة في القرآن الكريم بعدم الفصاحة •

وقد يقول الكاتب ان المتقدمين أفردوا هذه الآيات بوصفها مما يدل على أن لها في حكمها ومعناها ونظمها شأنًا خاصًا • ومن ذلك — مثلا — ما روى المفسر الواحدى في (البسيط) من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه — : هذه الآيات أعضل ما في هذه السورة من الأحكام •

وقد ذكر صاحب (البحر المحيط) وغيره عن على بن مكي قوله : (هذه الآيات عند أهل المعانى من أشكل ما في القرآن أعرايا ومعنى وحكما) •

وجاء في كلام الفخر الرازي — وعنه نقله بعض المفسرين —
قوله : (اتفق المفسرون على أنها في غاية الصعوبة اعرابا ونظما
وحكما ... فنقول للكاتب الفاضل :

أولا : لم يقل أحد من هؤلاء ولا من غيرهم أن الآيات عسيرة
النطق على اللسان ولا أن كلماتها يدفع بعضها بعضا ليزيله عن
موضعه قسرا . . ولا انها خالفت المؤلف من نظم القرآن تعهدا .

ثانيا : مع أن (ابن مكى) قال هذه الآيات من أشكل ما في
القرآن فجعلها بعض ما في القرآن من الآيات التي تتصف بأنها
(أشكل) أى لم يجعلها منفردة بهذا . أقول : مع ذلك رد عليه
المفسر الأندلسي (ابن عطية) فقال : (هذا كلام من لم يقع له
الثلج في تفسيرها ، وذلك بين من كتابه (يريد كتاب على بن
مكى) .

ثالثا : لا أدري كيف قال الرازي : (اتفق المفسرون) مع أن
من المفسرين الذين سبقوه من لم يقل ذلك .

رابعا : ننقل هنا ما قاله الشيخ رشيد رضا في تفسيره (المنار)
مع مافيه من الطول لعل فيه مايوجه الى الصواب . قال الشيخ
رشيد — بعد أن أشار الى هذه الأقوال التي نقلناها — : (نحن
لا يروغنا ما يراه المفسرون من الصعوبة في اعراب بعض
الآيات أو في حكمها . لأن لهم مذاهب في النحو والفقه يزنون
بها القرآن فلا يفهمونه الا منها ، والقرآن فوق النحو والفقه
والمذاهب كلها — فهو أصل الأصول . ما وافقه فهو مقبول وما
خالفه فهو مردود مردول ، وانما يهمنا ما يقوله علماء الصحابة
والتابعين فيه — فهو العون الأكبر لنا على فهمه ، ولم يرو عن

أحد منهم ما يدل على وجدان شيء من الصعوبة في عبارة الآيتين، وما نقله الواحدى عن عمر — رضى الله عنه — في آية : « فان عثر » فليس مما يؤيد ما نقل عن المفسرين من استصعابها ، بل معناه أن أحكامها أشد من سائر أحكام السورة ولعله يعنى بذلك ما فيها من التضييق في رد ايمان بعد ايمان واظهار فضائح من كذب وخان قال في الأساس : (عضلت على فلان : خيقت عليه أمره وحلت بينه وبين ما يريد ، ومنه النهى عن عضل النساء أى منعهن من الزواج) •

خامسا : لم تخالف هذه الآيات في أى جزء من أجزائها المألوفة من نظم القرآن الكريم فالفصل — مثلا — بين شيئين متلازمين ورد في القرآن الكريم كثيرا . من ذلك قوله تعالى : « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين^(١) » فقد فصل بين الفعل ونائب فاعله بكلمات أكثر عددا من الكلمات التى تفصل بها بين المبتدأ وخبره في آيات المائدة التى معنا •

ومن ذلك قوله تعالى — في سورة النساء :
« ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما^(٢) » •
فقد فصل بين القول ومقوله بست كلمات •
وقوله — سبحانه — في نفس السورة :

(١) سورة البقرة ١٨٠ •
(٢) الآية ٧٣ •

« ولا جناح عليكم ان كان بكم اذى من مطر أو كنتم مرضى
أن تضعوا أسلحتكم^(١) » •

فقد فصل بين اسم لا وخبرها بتسع كلمات ، في حين أن
الفصل بين المبتدأ والخبر في آيات المائدة بست كلمات فقط •
وقوله عز وجل في أوائل سورة المائدة :

ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن
تعتدوا^(٢) » •

والفصل ظاهر • وفي قراءة سبعية جاء قوله تعالى :

« وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » •
بنصب أولاد ، وجر شركاء ، على أن قتل مضاف وشركائهم
مضاف اليه • وهكذا •

أما الضمائر التي تصلح أن تعود الى أكثر من شيء واحد ،
والضمائر التي يفهم ما تعود اليه من السياق فكثيرة في القرآن
الكريم •

وكل ذلك جائز بل وكثير في كلام العرب •

وليس شيء من ذلك غريباً حتى يقول الكاتب : (بعد هذا
النداء يلقاك المبتدأ « شهادة بينكم » ثم تلقاك هذه الجملة
المعتزلة — اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية — ، ويعدها
يلقاك الخبر « اثنان » ولا تكاد تتبينه الا بعد معاودة الفكرة
وترداد النظر) •

(١) من الآية ١٠٢ •

(٢) من الآية ٢٠ •

ومن هذا الذى يخاطبه الكاتب بقوله : « ولا تكاد » هل عربى يفهم العربية أو أعجمى يجهلها ، أو رجل من عامة الناس ؟
والصنفان الثالث والثانى لا شأن لنا بهما ، ولا ننتظر منهما أن يفهما أين المبتدأ وأين الخبر . وأما الأول وهو الذى يفهم العربية — فإنه يتبين المبتدأ والخبر دون معاودة الفكر وترداد النظر ، وحين نقول : « يفهم العربية » لا نريد كل من له أدنى تحصيل من مفرداتها وتراكيبها وإنما نريد الذين خاطبهم القرآن أولاً وهم العرب الخالص . ثم الذين جاءوا من بعدهم ودرسوا العربية وتدارسوها وحصلت لهم ملكات فيها . فليس للكاتب ولا لنا أن نحكم على كلام عربى بله القرآن الكريم بأنه ثقيل على اللسان ، فإذا كان من كبار العلماء فى القرن الثانى الهجرى من يصرح بأنهم بعدوا عن اللغة التى نزل بها القرآن فكيف بنا ، ونحن فى القرن الرابع عشر ؟؟



أما عن الموضوع الثانى وهو منهجه فى التفسير ففسير مع الكاتب خطوة خطوة :

١ — ابتدأ بأعراب بعض الكلمات ، فقال : « اثنان » هو خبر المبتدأ « شهادة بينكم » ولا بأس بهذا الأعراب ، ولكن كان على الكاتب أن يبين أن هذا الأعراب لا يصح الا بتقدير أو تأويل فيكون تقدير الكلام — مثلاً — شهادة بينك شهادة اثنان لأن (اثنان) لا يكون خبراً عن شهادة ، وهو مصدر ، الا بمثل هذا التقدير . . . أو بالتأويل على حد (رجل عدل) وقال تحبسونهما « صفة ثانية لقوله تعالى » اثنان وأكثر المفسرين على أنه

(استئناف) وبعضهم بل أكثرهم قال انه صفة (آخران) قال
المرحسرى : (الاستئناف أظهر من الوصف لطول الفصل بالشرط
والمعطوف عليه بين الموصوف وصفته +

ولأن الكلام على القول بأنه صفة لـ (اثنان) أو لـ (آخران)
يؤول الى : فأخران شأنهما الحبس والتحليف + .

— كما قال المفسر الالوسى +

والخطب في الاعراب يسير ، ولكنى نبهت على ذلك لأشير الى
أن المنهج الذى سار عليه الكاتب يبدو واضحاً فيه حرصه على
أن يخالف ما رجحه القدماء ، وكما سيتضح مما يلى :

٢ — يقول الكاتب : (هو تشريع للمؤمنين فيما يواجهون به
موقفا كهذا الموقف وهو موت أحدهم ، وهو يضرب فى الأرض
بعيدا عن أهله وذوى قرابته ، ففي تلك الحال ينبغي أن يتخير
المحتضر شاهدين يتوسم فيهما الأمانة والاستقامة ثم يدعوهم
اليه ويفضى اليهما بما يريد أن يوصى به أهله فيما خلفه وراءه
من شئون) +

ولا يزيد على ذلك + ثم يقول فى موضع آخر معقبا على
تساؤلات الفقهاء والمفسرين حول موقف الشاهدين ، يقول :
(وهذا التخيير للآية الكريمة على هذا الوجه غير صحيح ،
فالمفروض فى الشاهدين أنها ذوا عدل) +

وبكل ذلك يهمل الكاتب جانبا هاما من هذه القضية ، فالمحتضر
يتخير شاهدين ذوى عدل فإذا لم يجد من يشهده من ذوى العدل
أشهد من حضره وقد اختلف العلماء فى تفسير قوله تعالى : « من

غيركم » فقال عامة المفسرين — كما ذكر الرازى — أن الشاهدين الآخرين من غير المسلمين ، وغير المسلمين لا يوصف بالعدالة وأن ذلك جائز في السفر خاصة بنص هذه الآيات . ثم قال الرازى : وأجمع المسلمون على أن الشاهد المسلم لا يجب عليه الحلف .

فالمحتضر لا يستطيع أن يتخير الشاهدين في كل الأحوال بل يشهد من حضره سواء تحقق فيه العدالة أو لم يتحقق لأنه لا يجد حتى يتخير . وقديما قال العرب : (من أخصب تخير) . والمحتضر في الغيبة قد يكون مجدبا ، فريما لا يجد أحدا من ذوى قرابته ولا من المسلمين الأجانب عنه

ومما يدل على أن المراد بالآخرين من غيركم ، شاهدان من غير المسلمين ، أن المفسرين اتفقوا — كما قال الرازى — على أن هذه الآيات نزلت في تميم الدارى وعدى بن زياد حين مات بديل بن أبى مریم وأشهدهما على ما معه وتميم وعدى لم يكونا مسلمين في ذلك الوقت ، قال ابن عطية : ولا نعلم خلافا في أنهما كانا نصرانيين وقد أمر النبى — صلى الله عليه وسلم — باستحلافهما حين نزلت هذه الآيات .

ورأى بعض المفسرين أن (الآخرين) يكونان من غير الأقارب ، أى من المسلمين ولكنهم من غير الأقارب واختار جماعة من المتأخرين الراى الأول حتى قال الجصاص أن التفسير الثانى لا وجه له لأن الخطاب توجه أولا إلى أهل الايمان فالمغايرة تعتبر فيه ولم يجز للقرابة ذكر .

وقد قال بعض المفسرين أن المؤمنين في ذلك الوقت — أى وقت نزول الآيات لم يكونوا في غير المدينة » فدلّت الآية على

أن للمحتضر أن يشهد اثنين من غير المسلمين وأقرت فعل بديل
ابن أبي مريم *

قال الفخر الرازي : (فالمسلمان العدلان صالحان للشهادة في
الحضر والسفر وهذا قول ابن عباس وأبي موسى الأشعري
وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وشريح ومجاهد
وابن جرير .

قالوا : إذا كان الإنسان في الغيبة ، ولم يجد مسلماً يشهده
على وصيته جاز له أن يشهد اليهودي أو النعمراني أو المجوسي ،
وعابد الوثن أو أي كافر كان وشهادتكم مقبولة ولا يجوز شهادة
الكافرين على المسلمين إلا في هذه الصورة .

كل هذه الأقوال وهذه الحجج تجاهلها الكاتب ، وكأن أحدا لم
يقبلها ثم أخذ يعيب على الفقهاء والمفسرين تساؤلاتهم ، ويصفها
بأنها (ضرب من المماحكة) وهي من (قبيل الرياضة الذهنية) .

وأحب هنا أن أوجه نصيحة — إذا سمح لي الكاتب الفاضل —
لكل من يتعمد للبحث فيما تناوله الأقدمون ، فأقول :
ليس الطريق في الوصول إلى الرأي الصحيح هو رد آراء الآخرين
دون بيّنة وبرهان . ولا سيما آراء كبار العلماء من فقهاء
ومفسرين وبخاسة إذا كان الحق واضحاً في جانبهم وإن أهمل
الآراء على هذه الصورة التي رأيناها عند الكاتب دون إبداء أي
سبب لهذا الإهمال ظلم لهؤلاء العلماء وظلم لأنفسهم الذي
تناولوه بالتفسير ولا حرج على أي باحث أن يختار ما يشاء من
آراء ولكن بشرط أن يقول للقارئ لماذا اختار هذا الرأي ، وما
وجه اعراضه عن الرأي الآخر ، أما أن يختار الباحث الرأي

٣ - ذكر الكاتب أنه اختلف في (الصلاة) التي يجبسان بعدها
أهي صلاة العصر أم صلاة الظهر ثم قال : (والرأى أنها أى
صلاة) حيث أطلق القرآن ذلك ولم يقيد هكذا بكل بساطة ويسر
صار (الرأى) عند الكاتب أنها أى صلاة وقد قال بذلك بعض
المفسرين ، فاذا ليس هو (الرأى) عند الكاتب ، ولكن لماذا رجح
الكاتب هذا الرأى ، بل جعله الرأى الذى لا رأى غيره مع أن
هناك شواهد كثيرة دلت على أنها (صلاة العصر) •

فالنبي - صلى الله عليه وسلم - حين فصل في قضية بديل ،
وهي التي كانت سبب النزول أمر باستحلاف الشاهدين بعد صلاة
العصر ، وكذلك فعل أبو موسى الأشعري حين رفعت إليه قضية
مماثلة . ولا نحجر على أحد أن يقول واثقا أو غير واثق (والرأي)
ولكن نلزمه حينئذ - كما قلنا - أن يفند آراء القائلين بالرأي
المخالف ولا سيما إذا كان الرأي الذي خالفه هو الرأي
الراجح عند العلماء .

ونحن ننقل هنا ما قاله شيخ المفسرين (ابن جرير الطبري)
لعل فيه ما يقنع بأن الصلاة في الآية ليست مطلقة ، قال هذا
المفسر الكبير : (وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي قول
من قال : تحبسونهما من بعد صلاة العصر ، لأن الله تعالى
عرف (الصلاة) في هذا الموضع بادخال الألف واللام فيها
ولا تدخلها العرب الا في معروف ، اما في جنس ، أو في واحد
معهود معروف عند المتخاطبين فاذا كان كذلك ، وكانت الصلاة

في هذا الموضع مجمعا على أنه لم يعن بها جميع الصلوات لم يجز أن يكون مرادا بها صلاة المستحلف من اليهود والنصارى ، لأنهم لهم صلوات ليست واحدة فيكون معلوما انها المعنية بذلك فاذا كان ذلك كذلك صح أنها صلاة بعينها من صلوات المسلمين ، واذا كان ذلك كذلك ، وكان النبي — صلى الله عليه وسلم — صحيحا عنه أنه لاعن ، بين العجلانيين بعد صلاة العصر ، دون غيرها من الصلوات كان معلوما أن التي عنيت بقوله « تحبسونهما من بعد الصلاة » هي الصلاة التي كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتخيرها لاستحلاف من أراد تخليط اليمين عليه . هذا مع ما عند أهل الكفر بالله من تعظيم ذلك الوقت ، وذلك لقربه من غروب الشمس) *

فابن جرير رجح ، واستدل بدليل لغوي وبدليل نقلى هو فعل النبي — صلى الله عليه وسلم — مع العجلانيين وأشار كذلك الى تعظيم المستحلفين من اليهود والنصارى لهذا الوقت . ولكن الكاتب اكتفى بكلمة واحدة هي أن الصلاة في الآية مطلقة . وقد رد الطبري القول بالاطلاق ، فكان على الكاتب لو أراد الاقتناع برأيه أن يفتد ما قاله الطبري وغيره ؛ مع العلم بأن هذا قول الجمهور *

فاذا أضفنا الى ذلك ما كان من النبي — صلى الله عليه وسلم — عندما نزلت الآية ، وما فعله أبو موسى الأشعري — رضى الله عنه — وما روى عن سعيد بن جبيرة وقتادة من أن الاستحلاف يكون بعد العصر ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : من حلف على يمين كاذبة بعد العصر لقي الله وهو عليه غضبان ، مما يدل

على أن هذا الوقت كان وقت الاستحلاف ، وما قاله الزمخشري من أن صلاة العصر كانت معروفة عندهم بالتحليف بعدها ، وأن ذلك أغنى عن التقيد .

أقول : إذا أضفنا كل ذلك الى ما قاله الطبري لم يخامرنا شك في أن الكاتب حينما قال : (والرأى) لم يكن منصفاً لهؤلاء العلماء ، بل لم يكن على المنهج الصحيح في قبول بعض الآراء ورفض بعض آخر منها .

٤ — قال الكاتب : (لانذهب في فهم الآية الكريمة الى ماذهب اليه المفسرون من أن حبس الشاهدين بعد الصلاة ، وتوجيه اليمين اليهما انما يكون ذلك عند الارتياح في شهادتهما . فان حبسهما بعد الصلاة وقبل أداء الشهادة هو الاجراء المطلوب على كل حال سواء وقع في نفس أهل المتوفى ارتياح أو لم يقع فذلك التدبير من أداء الشهادة بعد الصلاة مما يدخل الطمأنينة في النفوس ، ومما يقيم في نفس الشاهدين وازعا يزعهما عن الانحراف في الشهادة على وجهها كما يقول سبحانه :

« ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها » .

وأول ما نلاحظه أن الكاتب أوهم القراء أن المفسرين جميعاً قالوا ان الحبس لا يكون الا بعد الارتياح وأنه — وحده — يقول بخلاف ذلك — أى برأى جديد مع أن من المفسرين من قال به .

والمسألة ترجع الى احتمال لغوى لا مناص من الاعتراف به ، ولا يمكن تجاهله بل لا يمكن تجاوز رأى ما الا اذا اقيم دليل على أنه غير صالح بدليل وجبة .

الآية الكريمة تقول :

« تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم » •

فهناك شرط مؤخر تقدمه إعلان يصلح الثاني منهما أن يكون دليل الجواب ويصلح الأول معطوفا عليه • الثاني أن يكونا دليلي الجواب ، فعلى التقدير الأول : أن ارتبتم يقسمان بالله ، التقدير الثاني : أن ارتبتم فاحبسوهما فيقسمان بالله وهذا كما قلت صنيع لغوي لا سبيل الى انكاره أو تجاهله •

وقد قال بالأول بعض المفسرين وقال بالثاني أكثر المفسرين •
روى الطبري عن قتاده قوله :

(فان ارتبتم في شهادتهما استحلفا بعد العصر) •

وعن سعيد بن جبير : (فان صدقهما الورثة قبل قولهما ، وأن اتهموهما أحلفا بعد صلاة العصر) •

وقال الفخر الرازي : (ان ارتبتم اعتراض ، والمعنى ان ارتبتم في شأنهما واتهمتموهما فحلفوهما) •

وذكر الطبري عن السدي : فان رضى أهل الميت الوصية وعرفوا مال صاحبهم تركوا الرجلين وان ارتابوا رفعوهما الى السلطان فذلك قوله :

« تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم »

وفي (روح المعاني) • « ان ارتبتم » والجملة شرطية حذف جوابها لدلالة ما سبق من الحبس والاقسام عليه •

وأعتقد أنه لا وجه مطلقاً — بعد كل ما سبق — لقول الكاتب — انه لا يذهب مذهب المفسرين وكان يرجى منه أن يقول انى اذهب مذهب بعض المفسرين الذين يقولون ان الاستحلاف مقيد بالارتياح أما الحبس فهو مطلق •

على أن ما سبق من قوله في الشاهدين ، وأن المفروض فيهما أنهما ذوا عدل يقتضى أن يرجح رأى القائل بأن جواب الشرط مادل عليه الحبس والاقسام معا • وقد رد قول الفقهاء وقال انه غير صحيح حين قالوا ان الشاهدين أصبحا متهمين بارتياح أهل الميت فيهما ، رد ذلك بقوله : ان المفروض في الشاهدين أنهما ذوا عدل • فاذا لم يرض وصف التهمة لهما بارتياح ورثة الميت فيهما — مع أن ذلك صحيح — بفرض عدالتهم فلأن يعفيهما من الحبس أولى وأحق •

وأقول ان قول الفقهاء صحيح وتخطئته لهما في هذا القول ليست بصحيحة وذلك لأن هذا أمر لا مجال للتردد فيه • الشاهدان ذكرا ما أوصى به الميت ، وأهل الميت شكوا في شهادتهما • فبماذا نسمى ذلك ؟ هل يمكن أن نسميه اقرار أهل الميت بعدالتهما ، أو رضاء أهل الميت عنهما ، واذا لم يكن هذا اتهماما لهما فما الاتهام ؟

• — ويعمل الكاتب لذكر كلمة (مصيبة) في هذه الآية :

« فأصابكم مصيبة الموت » بأن ذلك اشارة الى أن هذا الموت الذى يقع فى الغيبة هو شئ أكثر من الموت بما يبعث من حسرة مضاعفة فى المحتضر الذى لم يشهده أهله وفى أهله

الذين لم محضروا موته ولم يؤدوا ما يجب للميت على الحي ومن هناك جاء التعبير عن الموت بالمصيبة الذي هو في واقعه شيء طبيعى في غير تلك الحال التى وقع فيها ؟

وهذا الكلام هنا غريب حقا فكأن القرآن لم يعبر عن الموت بالمصيبة الا هنا وكأن الموت لا يكون موجعا محزنا الا فى الغربه ، فمن قال ان الموت فى واقعه شيء طبيعى فى غير هذه الحال ؟ وهل نزل قوله تعالى : « وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » (١) • فيمن ماتوا فى الغربه ؟ أما الذين مات احباؤهم فى الحضر فأنهم لم تصبهم مصيبة ، فلا صبر ولا بشرى ؟

ان القرآن الكريم عبر بكلمة (مصيبة) عن نوازل أخرى :
« ما اصاب من مصيبة الا باذن الله » واذا فهى ليست خاصة بالموت فى الغربه •

ولو صح لنا أن نستبدل كلمات أقرب الى الصواب بكلمات الكاتب لقلنا : جمع القرآن الكريم هنا بين المصيبة والموت مع أن الموت فى نفسه مصيبة ، ومع أنه لو قيل فأصابكم الموت لفهم منه مصيبة الموت لسر من الأسرار البلاغية • ذلك أن الموت فى ذاته أمر تفزع منه القلوب والأبدان • ولكنه فى الغربه يكون أشد على النفوس وقعا فصرح بلفظ المصيبة هنا للإشارة الى قسوة الموت فى الغربه •

(١) سورة البقرة من الآية ١٥٥ ، والآية ١٥٦ •

وأعود فأقول : ان الكاتب الفاضل - فيما أعرف - حسن
القصد ولكن هذا الذي نعرفه لا يجعلنا نغض الطرف عن
أسلوب التعبير حين يتصل بالقرآن الكريم • ولا عن تنقص
الاقدمين من المفسرين • والفقهاء وتخطئتهم وايهام أنهم
يعملون عمل الفارغين من المماحكة اللفظية والرياضة الذهنية
وهم ينظرون في كتاب الله تعالى ويكون واجبنا في الذود عنهم
المزم حين يكونون هم على الجادة ، وغيرهم ممن يخطئونهم
على ثنيات الطريق •

والله يهدينا جميعا سواء السبيل ••

مُحَمَّدٌ رَسُولُ الْحَرِّيَّةِ

— أولا —

هذا عنوان كتاب ألفه أحد العاملين في الصحافة وقد ضمنه مواقف من سيرة رسول الاسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، واختار الأسلوب القصصى شكلا عرض فيه هذه المواقف •

ولعل القارئ المتوسط الثقافة يدرك بدون غناء أن الأسلوب القصصى يجنى على الحقائق ، ويبالغ في تجسيما وتلوينا •

واذا ساغ هذا وهو عندي غير سائق في عرض تواريخ الخلفاء والملوك والولاة والقواد — كما فعل جورجى زيدان في رواياته الاسلامية ما رواه لا يسوغ في كتابة سير الأنبياء والرسل ، ذلك أن أى تزويد فيها ، أو تخوير في نصوصها يعد انحرافا في التفكير الدينى •

وقد بذل العلماء السابقون ، والمعاصرون جهودا مضية لمنهجية سيرة الرسول وأحاديثه من كل دخیل عليهما ، فمن غير

المقبول أن نقر كاتباً على زيادته في سيرة الرسول ما ليس منها، ونرى أنه من الحتم على كل من يوجه نفسه للكتابة عن الاسلام، أو عن رسوله أن يشعر بجلال الموضوع، وأن يقدر كل كلمة يسطرها *

وعنوان الكتاب يوحى بادىء ذي بدء — بأن المؤلف سيعمد الى مواقف خاصة من مواقف الرسول يتجلى فيها اقراره لمبدأ الحرية، ودفاعه عنها والمبادئ التي جاء بها، وأكد بها حق الانسان في أن يكون حراً في عقيدته ونفسه وماله *

ولكن المؤلف لم يبرز هذا الجانب، بل لم يبد أنه يعنى به عناية خاصة، وإنما عرض لطرف من حياة الرسول، وأرخ لاكثر غزواته — في أسلوب قصصى طبعاً — دون أن يقف منها ومشيراً الى ما في هذه الغزوات من عناية الاسلام بالحرية في شتى مظاهرها *

ومع أنى لا أميل الى هذا النوع من العناوين، لأن دعوة الاسلام لم تكن في جانب من جوانب الحياة الانسانية أظهر منها في بقية الجوانب، فقد عالج الاسلام كل القضايا التي تشغل الناس في حياتهم من اجتماعية وسياسية، ودينية، وأخلاقية، كما بين لهم طريقى الخير والشر، وأكد لهم أن هناك يوماً آخر يحاسبون فيه على أعمالهم، الى غير ذلك مما عنى به الاسلام: (وكل شيء فصلناه تفصيلاً) *

مع هذا كنت أحب للمؤلف أن يتجه في بحثه الى ما ألزم نفسه به، وعنون له حتى لا يكون العنوان لمجرد اجتذاب القارئ *

وسواء كان الموضوع متفقاً مع العنوان ، أو مختلفاً معه فليس هذا من مآخذنا على الكتاب ، هذه المآخذ التي نعني بها في هذه الأحاديث ، وإنما قدمتها لأنبه على خطأ في أسلوب التأليف شاع بين المؤلفين المحدثين الذين يرون التأليف عملاً تجارياً أكثر منه تعبيراً عن فكرة اختتمت في رأس المؤلف ، وأحب أن بذيعها في الناس •

وأول ما نأخذ على المؤلف اعتماده الاعتماد الكلي على ما كتبه (المستشرقون) ولا أظن أن أحداً من الذين لهم أدنى دراية بأغراض الاستشراق ونشأته ، وتطويرة يجهل أن هؤلاء المستشرقين لا يلتزمون الأمانة العلمية ، وأن من أغراضهم الأولى محاربة الإسلام ، وقرآنه ورسوله ، وتاريخه •

فمن الخطأ والخطر أن يعتمد مؤلف يكتب عن الإسلام — بعامة — وعن سيرة الرسول — بخاصة — على ما زوره هؤلاء الأعداء الذين يتخذون من قداسة البحث العلمي وسيلة للطمع والتجريح ، بل لسوء الأدب ، واستغلال الشعوب •

ولكن من المؤسف حقاً أن بعض الكتّاب عذنا لا يرون أوثق من هؤلاء وبعضهم يتابعهم عن هوى ، ومرض نفسي ، وآخرون يتابعونهم عن غفلة ، أو عن شهرة للتعالم وإيا ما كان الدافع إلى الاعتماد على هؤلاء • فهو جنائية وطنية قبل أن تكون جنائية دينية ، ونحن نلوم — وبشدة — أولئك الذين يكتبون عن سيرة الرسول بروح هؤلاء المستشرقين وتوجيههم •

عرض المؤلف في كتابه لقصة (الفيل) ولهذه القصة أصل معروف ، واضح صادق كل الصدق ، فمن الانحراف في العقيدة

أن تتابع أحداً يتجه لهذا الأصل ، ويحاول أن يعتسف في تأويله وتفسيره ، أو يحاول — بخبث ومكر — أن يكذبه •

والمستشرقون قد حرفوا في هذه القصة ، فادعوا أن (أبرهة) الذي جاء بجيشه ليهدم الكعبة لم يكن يقصد مكة ، وإنما مر بها في طريقه لمحاربة الفرس مجاملة من الأحباش للروم ، قالوا: والطريق الطبيعي الممتد من اليمن إلى حدود فارس يمر بمكة ، وينتهى عند وادي الرمة أحد روافد الفرات فيما مضى •

وزعموا أن ما أصاب جيش أبرهة كان وباء جاء معه من اليمن، وأن العرب أيقنوا أن ذلك أثر من تدخل العناية الالهية •

وزعم المستشرقون — كذلك — أنه لا يمكن وجود فيل أو فيلة مع جيش أبرهة ، لأنه — كما زعموا — لا يمكن الاحتفاظ بالفيلة في اليمن ، وتسييرها في صحارى نجران ، وأن الفيلة الافريقية التي قد يكون الأحباش جلبوها إلى اليمن من الصعوبة ترويضها حتى أن بعض الفئات من علماء الحيوان يرون استحالة ذلك ، وأن الأحباش لم يكونوا على دراية بترويض الفيلة •

هذه بعض مزاعم المستشرقين حول قصة الفيل ، نقلتها عن كاتب كان مسلماً ، وقد كان الواجب على كاتبنا إذا عرضوا لمثل هذا الموضوع أن يرجعوا — أولاً — إلى القرآن الكريم ولتفسيره ، غير أنهم ينظرون إلى ما كتبه المستشرقون ، فمنهم من يأخذ كل ما قالوه قضايًا مسلمة ، وفي ذلك تردى بعض كتابنا ومنهم من يأخذ بعضاً كما فعل هذا المؤلف •

فقد تابعهم في جزئية من هذه الجزئيات ، زعم — كما زعموا — أن مكة قبل ميلاد النبي بقليل كان يغشاها الوباء (جاء مع أبرهة ملك الحبشة) ، وان جيش أبرهة (لم يكده يتقدم حتى عصف برجاله الوباء الذي كان يعصف بمكة ، فاذا برجال أبرهة يتساقطون مرضى بالجدرى ، ومعهم أبرهة نفسه) •

وغير المؤلف يتخابث ، ويتعالم ، ويدعى أن ذلك تؤيده المصادر العربية ، ويؤيده القرآن •

قال أحد الكتاب في مقال له بمجلة الرسالة القديمة (العدد ٣٤٨) : (تقدم الأحباش بقواتهم شمالا ، لكنهم لم يكادوا يقربون مكة حتى ألت بهم كارثة أودت بهم • وبعض المراجع العربية ترجح أن تكون هذه الكارثة هي نفشى الجدرى في جيش الأحباش ، والقرآن الكريم يؤيد كلام المؤرخين العرب) •

وزعم أن ذلك في كتاب الكشاف للزمخشري •

وواضح من كل ذلك — وهو كما قلت متابعة لتخريفات المستشرقين — القصد الى تكذيب القرآن •

فالقرآن أثبت أن الذين جاءوا بالحملة كانوا (أصحاب الفيل) • ومن البدهى أنه لا يصفهم بذلك حتى يكون معهم فيل • والمؤرخون العرب والغربيون لا يشكون في أن الجيش الذي جاء انما هو جيش حبشى ، والأحباش غير معروفين بالفيلة حتى نحمل التعبير (أصحاب الفيل) على أنهم شعروا بذلك ، واذن فلا يمكن اضافتهم للفيل الا اذا كان في حملتهم فيل •

والقرآن يثبت أن أصحاب الفيل كانوا يريدون بمكة شرا :
 « ألم يجعل كيدهم في تضليل » فهم قد جاءوا كائدين ، والكيد
 لا بد أن يكون بالبيت الحرام ، ولا يمكن أن يكون الكيد للفرس ،
 لأن الله لا يمنح عنايته لقوم وثنيين ، ثم يمتن بهذه العناية ،
 ويوجه إليها رسوله الذي بعثه ليدعو إلى التوحيد الخالص •

والقرآن يثبت أن الله هو الذي أهلك جيش أبرهة فأرسل عليهم
 طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل •

ولا أدري ما الذي يدعونا إلى أن نلجأ إلى التأويل في مثل
 هذا ، والقرآن قد صرح بأن الله أرسل طيرا ، وأن هذه الطير
 رمت الجيش بحجارة ، وأن هذه الحجارة هدت قوتهم ، وجعلتهم
 كعصف مأكول ، فما الذي يحدث لو آمننا بهذا كله على ظاهره ؟
 والحياة كل يوم تأتينا بالعجائب والغرائب التي تكاد تنكرها
 العقول لولا المشاهدة ؟

ولكن الذي لا حظته أن مؤلف كتاب (محمد رسول الحرية)
 يميل إلى تجاهل كل ما أيد الله به رسوله من أمور غير معتادة •
 وسنعرض لذلك فيما يأتي من حديث •

أما ما زعمه هذا الكاتب من أن الزمخشري يرجح — كغيره
 من بعض مؤرخي العرب — أن الذي حل بجيش أبرهة هو
 الجدرى ، فهو كذب واختلاق •

فالزمخشري لم يرجح هذا الرأي ، بل لم يذكره بصورة تناقض
 ما جاء في القرآن ، وعبارته — كما جاء في تفسير سورة الفيل —

(فأرسل الله طيرا سوداء ، وقيل خضراء ، وقيل بيضاء مع كل طائر حجر في منقاره ، وحجران في رجليه أكبر من العدسة ، وأصفر من الحمصة) ، وبعد أن يتحدث عن بعض الغرائب في هذا الموضوع يقول : (وعن أبي سعيد الخدري : من أصابته — يريد الطير — جذرته ، وهو أول جدري ظهر على الأرض) •

فالزمخشري فسر الآية — أولا — بما هو الظاهر منها ثم أضاف — ثانيا — رواية عن أحد الصحابة لم ينف فيها أن الله أرسل طيرا ، بل جعل (الجدري) ناشئا عن رمى الطير للجيش بالحجارة • فأين الترجيح في هذا الصنيع ؟

الحق أن بعض الكتّاب يريدون أن يفهموا القرآن على أهوائهم ، بل هم لا يريدون بالقرآن خيرا ، وربما أدام ذلك إلى الكذب والافتراء على المؤرخين وعلى المفسرين •

وهذا هو ما عرفته من كل منحرف : يرى الرأي ، ثم يبحث عن رواية أو قول يؤيده ، فإذا وجده أشاد به دون أن يحاول معرفة درجته من الصحة ، ولا بأس عنده أن يتكذب على الرواية ، أو يحرفها •

وانى لاعتقد أن ماجاء به القرآن بما يحاول هؤلاء تحريفه أو تكذيبه لو جاء من طرق أخرى لآمنوا به ، وناضلوا دونه ، ولكنهم الرغبة الدفينة في النفوس التي تبغى الحط من الاسلام ، ونشويه نصوصه ، ولكنه — أيضا — الحطب في حبال المستشرقين والايمن الأعمى بهم ، وبما يكيّدون للاسلام ؟

— ثانياً —

زيد بن عمرو بن نفيل أحد الحنفاء الذين كانوا يتعبدون على ملة سيدنا ابراهيم ، وقد هجر عبادة الأوثان ، وأطال البحث عن التوحيد الخالص ، ونفر مما كان عليه قومه من باطل وزور •

وقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال « زيد بن عمرو كان أمة وحده » وقال يجيب سيدنا عمر بن الخطاب — وهو ابن عم زيد — حين سأله عنه — « غفر الله له ورحمه فإنه مات على دين ابراهيم » •

كل هذا حسن ، ولكن مؤلف كتاب (محمد رسول الحرية) يحاول أن يجعل من زيد سلفاً للرسول ، يقتفى أثره ، ويسير على نهجه ، فهو يقول متسائلاً عن الرسول : (أهو مبشر جديد اذن مثل زيد بن عمرو) ويبدأ ويميد في هذا المعنى •

بل يبلغ به الأمر أن يضع محمداً صلى الله عليه وسلم في مقارنة مع زيد بن عمرو ، ويصرح في العبارة بتفضيل زيد •

يقول في صفحة ٣٧ من الكتاب بعد أن ذكر أن محمداً كان في أحد البلاد يعمل أجيراً باحدى القوافل ، وإن زيدا حل هذا البلد

باحثاً عن الحقيقة يقول بعد هذه المقدمة : (وعلى مائدة الطعام رفض زيد أن يأكل ما ذبح تحت قدمي تمثال أحد الآلهة وهاور محمداً ... أما محمد فأكل ، ولكن زيدا أثر الجوع على الشبع من فييحة نحررت امام صنم ، ولم يذكر عليها اسم رب ابراهيم) •

والتقصة أصل في التاريخ ، ولكن رواية المؤلف لها على هذا الوجه تجعلنا نفهمه بقصد الاساءة الى الرسول ، أو على الأقل تجعلنا نؤكد أنه لا يعنى بتحري الحقيقة عندما يتحدث عن هذا المقام الكريم .

ذكر البخارى هذه القصة ، مبهمه مرة ، ومفصلة مرة أخرى ، ففي الأولى روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا زيدا أن يأكل من سفره كانت قدمت اليه غابى زيد أن يأكل قائلا : انى لا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه .

وفي الثانية روى عن ابن عمر — رضى الله عنهما — (ان النبى صلى الله عليه وسلم لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبى الوحي فقدمت الى النبى صلى الله عليه وسلم سفره فأبى أن يأكل منها ، ثم قال زيد : انى لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل الا ما ذكر اسم الله عليه .

ففى هذه الرواية تصريح بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأكل وفي الأخرى ابهام ، فليس فيها ما يدل على أن النبى أكل أو لم يأكل ، فمن البدهى أن تحمل الرواية المبهمة على الرواية المفصلة .

على أن العلماء قد أجابوا عما عساه يفهم من الرواية الأولى ، وكان من اجاباتهم انها خالية مما يثبت أن النبى أكل .

قال السهيلي : فان قيل فالنبى صلى الله عليه وسلم كان أولى من زيد بهذه الفضيلة ، فالجواب أنه ليس في الحديث أنه صلى

الله عليه وسلم أكل منها ، وعلى تقدير أن يكون أكل فزيد انما كان يفعل ذلك برأى يراه ، لا بشرع بلغه وأياما كان فقد كان على المؤلف ، وهو يكتب كتابا يشيد فيه بعظمة محمد أن ينأى به عن مقام التفاضل • والحق انى لم أفهم لماذا عنى المؤلف بتسجيل هذه القصة على هذا الوجه •

وكما حاول المؤلف أن يجعل النبى صلى الله عليه وسلم مقلداً لزيد بن عمرو وغيره ، ممن تركوا عبادة الأصنام حاول أن يتبنت أن محمداً أخذ (علمه) عن آخرين •

فالنبنى صديق أبى بكر ، وأبو بكر — كما يذكر المؤلف — مازال يقرأ ، ويحفظ كل ما ينتهى اليه ، ويحول رحلاته التجارية الى فرص لمزيد من الاطلاع حتى أصبح اليوم أكثر فتيان قريش ثقافة ••• وفيهم كان يقرأ أبو بكر ؟ يجيب : كان يقرأ ما انتهى اليه من كتب الأولين •

وطبيعى — عند المؤلف — أن محمداً — وان لم يكن يعرف القراءة كان يأخذ عن صديقه أبى بكر ما قرأه فى كتب الأولين • بل انه — عند المؤلف — أيضا — أخذ عن الأخبار والرهبان ، فهو يقول : (لقد طالما تحدث محمد بن عبد الله مع صديقه أبى بكر ابن بى قحافة فى هذا كله — يريد ما عليه قومهما من ضلالات — ولقد رحلا معا ، وعانيا معا ، وشاهدا الرهبان والكهان فى بلاد بعيدة ، وسمعا معا من الأخبار) •

وليسست هذه قط مصدر ثقافة محمد ، بل ان فتيان قريش ورجالها كانوا يجتمعون فى ساحة حول رجل يروى لهم حكايات تلهب خيالهم المعذب وكان محمد قد شهد هذا كله •

وكان نتيجة لهذا كله — عند المؤلف — ان محمدا صلى الله عليه وسلم أقبل ليملا مكانه المرتقب مسلحا بفهم كامل لطبيعة دوره ، وبنظرية كاملة عن الحياة والموت ، وبإدراك كامل لحاجات البشر المعذيين •

فكان النبي كان يعد نفسه لهذا العمل ، وكأنه قبل أن يهبط عليه الوحي — قد رسم منها دقيقا لما يريد أن يعمل ، وحسبنا بهذا ابعادا في فهم طبيعة الرسالة •

فالنبي لم ينطق علما عن أحد قبل النبوة ولا بعدها الا عن الله عز وجل ، وقديما ادعى المشركون أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعلم من بشر فرد عليهم القرآن الكريم : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين^(١) » •

وعلى نهج المؤلف من مجانبة الدقة ، وتحري الحقائق .ساق قصة بدء الوحي على هذا النحو :

(ولكنه في تلك الليلة من رمضان أغفى قليلا فنام ، فرأى من يعرض عليه كتابا ويطلب منه أن يقرأ •• فقال له : (ما أنا بقارئ) •• ولكنه ألح عليه أن يقرأ ، فسأله : (ماذا أقرأ) فقال له : « اقرأ باسم ربك الذي خلق •• خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » •• وعندما استيقظ من نومه كان يحفظ ما سمعه في النوم ، وبينما يستوضح حلمه فيما بينه وبين نفسه اذا

(١) سورة النحل آية ١٠٣ •

به وهو بين اليقظة والنوم كأنه يسمع صوتا من بعيد يقول له : يا محمد .. أنت رسول الله ، وأنا جبريل » •

فالمؤلف — كما يبدو من كلامه — يحاول أن يؤكد أن بدء الوحي إنما كان في النوم ، وأن الذي جاء محمدا إنما هو حلم • وهذا — كما قلت — تقصير في تحرى الحقيقة • •
الا اذا كان للمؤلف هدف آخر •

حديث بدء الوحي حديث معروف مشهور ، روته كل كتب السنة ، وها هو ذا كما رواه مسلم : « عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أنها قالت : كان أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ، وهو التعبّد لليلالي ذوات العدد ، قبل أن يرجع الى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء فجاء الملك فقال اقرأ قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ • قال : قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى ، فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم ، فارجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بواديه • • » •

والحديث واضح في أن الرسالة انما جاءت للرسول يقظة والعلماء يقولون : انما ابتدئ صلى الله عليه وسلم بالرؤيا لئلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا تحتلمها قوى البشر ، وقال العلماء أيضا : والحكمة في الغط شغله عن الالتفات والمبالغة في أمره باحضار قلبه لما يقوله له ، وكرره ثلاثا مبالغة في التنبيه •

نعم • جاء في بعض كتب السيرة ان ذلك كان مناما ، ولكن المحققين من العلماء ردوا هذا القول فلا ينبغي لمن يكتبون سيرة الرسول بعد هذه التحقيقات أن يتبعوا بنيات الطريق •

وكما يجمع بالمؤلف خياله في تصوير حياة الرسول يجمع به أيضا في تصوير حياة أصحابه ، ولعل أشنع ما وقع فيه المؤلف اتهامه لحمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ورميه بجريمة شنعاء •

فقد ورد في حديث صحيح رواه البخاري أن سيدنا على كرم الله وجهه شكاه حمزة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه — أعنى حمزة — جب سنامى ناقتين له ، ويقر خواصرهما ، وأخبر على النبي أن حمزة في بيت معه شرب من الانصار ، فذهب النبي مع على ، وزيد بن حارثه : (حتى جاء البيت الذي فيه حمزة فاستأذن فأذنوا لهم فاذا هم شرب فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوم حمزة فيما فعل ، فاذا حمزة قد ثمل محمرة عيناه) •

هكذا أورد البخاري الحديث في أول (كتاب الخمس) ثم

أعادته عند الكلام على غزوة بدر ، وزاد فيه — والضمير لحمزة — (وعنده قينة وأصحابه ، فقالت في غنائها : ألا يا حمزة للشرف النواء) (١) .

وكل ما في الروایتين أن حمزة — رضى الله عنه — كان قد سكر ، في جماعة من أصحابه ، وكانت معهم مغنية تغنى .

وقد كان ذلك قبل أن تحرم الخمر ، ولكن المؤلف — كما ظلت — جمع به خياله ، فهو يقول : ان حمزة يعود الى سلوكه السابق ، وحياته القديمة من الخمر والغزل ، بعد أن انقطع طويلا عن حياة الليل هكذا (حياة الليل) ، وقد عاد (يجرع من متاع الحياة بظماً غريب) ، لا يرويه شيء ... حتى لقد ظل ليلة كاملة يشرب الخمر ، مع فانتنتين من بغات إسرائيل ، رقصتا له ، وغنتا ، ومتعتاه ، فغدا على المسجد يتحدث عن جمالهما ، ولا يخفى أنه استمتع بهما ، كان يتطوح ويتضاحك ، وهو يقبل على المسجد) .

وأخيرا يعلنها المؤلف صريحة ، وهي نكراء شنيعة ، فيرمى حمزة في عقته ، دون سند أو دليل ، فيقول : (على أن حمزة أفاق لنفسه ، فأعلن ندمه أمام الجمع ، وأقسم ألا يقرب الخمر ، ولا نساء غير زوجاته) .

واذن فحمزة عند — المؤلف — كان يفجر بغاتنتاته إسرائيل .

(١) الشرف — بضمين — جمع شارف ، وهو المستن من النوق ، والنواء — بكسر النون — جمع ناوية ، وهي الناقة المهيئة .

(كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا) •

حمزة الذى كان قد بلغ الخامسة والخمسين فى ذلك الوقت ،
والذى أعز الله به الاسلام مع عمر بن الخطاب ، يقرب نساء
غير زوجاته ، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم الذى أعلن
يوما كلمته الخالدة : (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت
يدها) هذا النبي الذى لا يتهاون فى حدود الله • يرى حمزة
يرتكب الفجور ويراه يعترف ويبيكى من الندم فلا يصنع الا أن
(يخفف عنه) — وهذه الاخرة عبارة المؤلف !! •

وهكذا يصف المؤلف عند الحديث عن الصحابة فعلى — كرم
الله وجهه — فتن بابنة أبى جهل الصغيرة الجميلة الغنية ،
ويضعف حين يدخل مكة فيدير رأسه جمال بنت أبى جهل
وبطمعه مالها • لقد أعجبك حسننها وفتنك مالها • هذا هو كل
ما فى الأمر •

وعثمان — رضى الله عنه — انما مال قلبه للاسلام ، لان
محمدا رجل أمين ، ولأنه والد رقية ، وقد وقع منها فى قلبه
شئ •

فحب رقية — اذن — أحد الدوافع القوية التى دفعت عثمان
الى الاسلام ، وعبد الرحمن بن عوف — رضى الله عنه — وهو
أحد العشرة المبشرين بالجنة ، اتهم — كما يذكر المؤلف — من
كبار الصحابة بأنه — وهو التاجر الغنى — مازال على الرغم
من اسلامه يعطف على أفراد طبقتة القديمة من أسرة قريش •
مازالت صلاته الشخصية وعواطفه الخاصة أعمق من ايمانه

... وهو لا يأبى القتل لصديقه أمية بن خلف الا لأنه غنى
مثله *

هذا هو منطق المؤلف ... وله من أشباه ذلك كثير ، حتى
عند حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يحسن اختيار
الألفاظ في بعض الأحيان *

بقيت كلمة واحدة أحب أن يعرفها المؤلف ، وبعض المؤلفين
الآخرين . ذلك أن دخول النبي وأصحابه مكة بعد صلح
الحديبية بعام لم يكن للحج ، وانما كان للعمرة ، فالنبي صلى
الله عليه وسلم لم يحج في حياته الا مرة واحدة هي حجة
الوداع ، ولكن المؤلف تبعا لبعض المؤلفين المحدثين يظنون أن
النبي حج في ذلك العام الذي تلا عام الحديبية ، فهو يقول مثلا :
(وذو الحجة يقترب) * (هذا هو موسم الحج) *

(فغدا أقام المسلمون في مكة ثلاثة أيام وانقضت مناسك
الحج) — ولقد اتاح لهم هذا الحج أن يحادثوا كثيرين من
أهل مكة (وحشد محمد كل الذين صدوا عن مكة في العام
الماضي) يريد عام الحديبية *

هذا ما رأيناه وقرأناه في السطور ، أما الذي وعيناه بيننا
السطور فنمسك عنه ، غربما كنا مخطئين فيما فهمناه ، وان
كانت الدلائل واضحة ، والله يهدينا جميعا الى سواء السبيل *

— ثالثا —

قرأت (مقالة) في عدد رمضان في إحدى المجلات ، وما انتهيت من قراءتها حتى وجدت الأسف يتملكني :

أولا : لأن واحدا من بنى الانسان لم يستطع أن يضبط أعصابه أمام كلمة حق لم يرد بها الا وجه الله تعالى فراح يهذى بكلام أبعد ما يكون عن الحق والصواب •

وثانيا : لأن هذه المجلة — ولأول مرة في تاريخها — وهى المجلة الوقور اضطرت — عملا بحرية النشر — أن تسود بعض صفحاتها بهذا الغناء •

ومما زاد الطين بلة ان هذه المجلة الكريمة علينا جميعا نشرت ما لم يكن ينبغى أن ينشر في شهر رمضان المبارك •

ولعل المجلة أرادت أن تبين للقراء — وبنموذج مكتوب — الطريقة المثلى في المناقشات العلمية عند هؤلاء الذين يتصدون للقول في تاريخ الاسلام بغير علم •

وقد خطر لى — بادىء ذى بدء — أن أعفو عن صاحب هذه (المقالة) فلا أثقل على قلبي ولا على القراء بتذكر ما كتب ، ولكنى ذكرت أن الموضوع يتصل بالدين ، وليس من حقى أن أسكت عن بيان وجه الحق فيه ، وذكرت — ثانيا — قول شاعرنا

شوقى — ويبدو أن تذكره ضرورى فى بعض الأحيان :

والشر ان تلقه بالخير ضقت به
ذرا ، وان تلقه بالشر ينحسم

وهأنذا أكتب هذه الكلمات وأنا كاره أشد الكراهية •

وقبل أن نعاصر (صاحب القالة) الحساب على ما قاءه
فوق صفحات هذه المجلة نقف وقفة قصيرة عند الكلمة الوحيدة
التي تعتبر — على ضعفها — فى الموضوع ، فقد قال انه
(اعتمد على ما روى عن ابن عباس) فى تفسير طير الأبايل ،
ولو كان جادا يحترم نفسه ، ويحترم القراء لنقل لنا ما قاله
هذا الحبر ، ولكن يبدو أن أحدا لقنه هذا الكلام ، وظن فيه
مخلصا ، فلما رجع الى المصادر وجد قول ابن عباس لا يؤيد
زعمه ، وهذا اذا أحسننا به الظن وتخيلنا ، أنه فهم ما روى
عن ابن عباس •

ولعل من واجبه علينا — كما هو واجب أمثاله — أن نشرح
له ما غمض عليه ، فنقول — وبالله التوفيق — اعلم — وفقك
الله وهداك — أن كتب الحديث والتفسير روت عن ابن عباس
فى حادثة الفيل روايات ، منها ما رواه ابن سيرين عنه فى صفة
الطير ، قال : كانت طيرا لها خراطيم كخراطيم الفيل ، واكف
كأكف الكلاب ، وما رواه عطاء عنه أيضا قال : طير سود جاءت
من قبل البحر أفواجا أفواجا •

وأظن أن الذى يصف شيئا يعترف بوجوده • وكل من أنكر

ذلك ينبغي ألا يكلم بل اننا ننتهم عقولنا اذا خطر لنا أن
نجدله •

أما الرواية التي لقنها (صاحب القالة) وظن أن فيها غناء ،
فما رواه عكرمة عن ابن عباس لما أرسل الله الحجارة على
أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم الا نبط جلده ، وثار
به الجدرى وعلينا أن نشرح (للمؤلف الكبير ، وللعالم النحرير
متبسطين ما أمكن حتى يفهم ، فنقول : يا هذا في العبارة الروية
ثلاث جمل في كل منها فعل وفاعل ، وفي الأولى منها مفعول
(لم يقع حجر على أحد الا نبط جلده ، وثار به الجدرى) •
يقع ثعل وحجر فاعل ، و (على أحد) في مكان المفعول •

وطبعا القتل يقع من الفاعل ، وهكذا في الجملتين الآخرين •
فاذا ، هنا حجر وقع ، وانسان وقع عليه الحجر ، ونتيجة لهذا
الوقوع • وهى نبط الجلد وثوران الجدرى • فالجدرى نتيجة
لوقوع الحجر • واذن فابن عباس لم ينكر ان حجرا وقع —
بل لقد روى عنه في وصفه ، حديث — ولم يجعل الجدرى
طارئا مع جيش أبرهة ، ولم يجعله عاصفا بأهل مكة قبل مجيء
هذا الجيش •

ولكى يتأكد القراء انا لم نتجن على (صاحب القالة) نعيد
مرة أخرى ما كتبه في هذا الشأن : قال في صفحة ٢١ من كتاب
له •• (ولكن مكة بلد يغشاها الوباء ••• جاء الوباء مع ابرهة
ملك الحبشة الذى أراد أن يستولى على مكة ، ويهدم الكعبة) •

وقال في صفحة ٢٢ من نفس الكتاب : (ولم يكد جيش أبرهة

يتقدم حتى عصف برجاله الوباء الذي كان يعصف بمكة ، فاذا
برجال أبرهة يتساقطون مرضى بالجدرى ، ومعهم أبرهة نفسه ،
وما أغنى عنهم الفيل ، وهكذا فر أبرهة عائداً الى صنعاء بفلول
جيش ممزق يتخاطف الوباء والموت من بقى من رجاله •
فيتهاوون على الطريق كعصف مأكول) •

والواضح من العبارات الاولى أن الوباء جاء مع جيش
أبرهة ، وأنه أصاب أهل مكة بعد مجيء هذا الجيش ومن الثانية
أن الوباء سبق جيش أبرهة وبدهى أن المؤلف لم يفطن لهذا
التناقض •

ولكن اذى ينبغى أن يفطن له أن كلا من العبارتين يجعل
ما أصاب جيش أبرهة وباء لا حلة له بالطير الأبابيل •
فلعل (صاحب القالة) لا يتمسح بعد ذلك بابن عباس ،
ولا بغيره من العلماء ، ولعله لا يجيء ليعلمنا ان ابن عباس
أمام المفسرين بالاجماع •

وقد كان يمكننا أن نقول له شيئاً لا يعرفه ، وهو أنه لم
يصح — عند العلماء — عن ابن عباس الا مائة حديث على كثرة
ما روى له ، ولكننا آثرنا أن نسلم له أن ما قاله ابن عباس
في هذه الحادثة صحيح عنه ، ثم نضع يده على التفسير
الصحيح •

ومن مغالطات المؤلف — أو من عدم ادراكه لا أدري — أن
يدعى أن الخلاف بيننا على تأويل آية (الطير الأبابيل) فهو
يقول : كل ما في الأمر انى أخذت بتفسير (طير أبابيل) على

تأويل الآية ولكنك تريد أن تفهمها بظاهر النص ، لقد تابعت
أنا ابن عباس ، وتابعت أنت غيره •

وهذا كلام يراد منه إيهام القراء بأن (صاحب القالة)
يعترف بوجود هذه الآية في حين أن كلامه واضح في أنه
يتجاهلها فأين في كلامه الذي نقلته (تأويل الآية) لقد قال ان
الوباء جاء مع جيش أبرهة . أو كان يعصف بمكة قبل مجيء
الجيش فهل يفهم من ذلك أن الوباء نتج من رمي الطير بالحجارة
ومن رمت ياترى ؟ جيش أبرهة : أم أهل مكة ؟ •

ويعود للمغالطة مرة أخرى فيقول : ما هو الفرق بين أن
تفسر الآية بظاهر النص أو بالتأويل •

وأقول له : ان معنى التأويل أن تنظر في اللفظ فتأوله • أما
أن تتجاهله كلية ، فليس هذا من التأويل ولا من التفسير •

وانى لأعجب عجا لا ينقضى من تبجحه ، وادعائه أنه اعتمد
على القرآن والتفسير وكتب الدين وأنى لأؤكد له أنه لم يفهم
الى الآن الفرق بين تأويل آية ، وبين اهمالها ، ولم يفهم كلام
ابن عباس على وجه الصحيح لأنه لا يريد أن يفهم الا ماكتبه
المستشرقون •

ان تأويل الحجارة بأنها (الجراثيم) ، وان كان تأويلا
قاسدا غير انكار الآية فالمؤول يضع النص أمامه ثم يقول في
فهمه ما يشاء عن علم أو عن جهل • أما تارك النص فهو الذى
يقول عن شىء صنعه الله بجيش أبرهة : أنه جاء مع الجيش ،
ومعنى هذا أن الله لم يرسله عليهم ... وشتان بينهما •

وما بال (صاحب القالة) لم يصح عنده في تفسير الآية الا
ما ارتضاه المستشرقون هل يستطيع أن يفتينا ما وجه الترجيح ،
وهل جاء ذلك التفسير في القرآن أو في كتب التفسير أو كتب
الدين التي اعتمد عليها — كما يزعم ؟؟ •

أعتقد أن الجواب هناك عند كلامه على غزوة الأحزاب ،
وعدم التفاته أية التفات الى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا
اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا
وجنودا لم تروها » •

وهو يفهم — ان كان عنده أدنى فهم — ما أعنى بهذا
الكلام •

لقد علق الآمدى (صاحب كتاب الموازنة) على بيت لأبي
تمام ، ولما ضاقت نفسه بما في البيت من غناء صاح : فيامعشر
الشعراء والبلغاء ، ويا أهل اللغة العربية ألا تسمعون ؟ ••
ألا تضحكون ؟ ••

ونحن — والله — قد غثيت نفوسنا بما في كلمة (المذهب جدا)
فأردنا أن نقول كما قال الآمدى ولكننا وجدناه دون ما نريد
أن نقوله بكثير •

أظن أن المؤلف بعد ما قلنا — ان كان فهمه — لا يستطيع
أن يعيد النظر مرة أخرى ، أن هذا الذي جاء في كتابه رأى
لابن عباس ، أو لأحد من علماء المسلمين • ولم يبق الا أن تحلف
له بالله أن ابن عباس مظلوم معه ، ومع أمثاله ممن لا يفهمون •

ثم لنعد الى ما أطلال به من سخافات :

أول ما طالعنا به أن كتابه ليس كتاب سيرة ، ثم عاد ليؤكد هذا مرة أخرى . فما معنى هذا ؟ هل معناه أنه إذا لم يكن كتاب سيرة فلا بأس بالانحواف فيه ؟ هل معناه أنه إذا لم يكن كتاب سيرة فلا بأس بالانحراف فيه ؟ هل معناه أنه إذا لم يكن شهدوا بدرا وأحدا ما لم يقله أشد المتعصبين على الاسلام واني لأنتقل هنا بعض ما قاله كارها ، آسفا ، خجلا من المسلمين في كل مكان تقرأ فيه هذه المجلة . قال — غفر الله له — : (كثير من المسلمين هربوا الى الجو الصاخب في بيوت اليهود بعد الانهيار النفسى في غزوة أحد — وروع محمد من مناظر الرجال البواسل الذين ناضلوا معه في بدر وأحد ينحدرون الآن في يأس قاتل فما يفيق الواحد منهم من الخمر ، مايغادر أماكن القمار الا ليستمتع باحدى المغنيات أو الراقصات اليهوديات ... ولا شيء بعد يملأ القلب والفكر غير الرغبة في الفرار من الواقع المعضب ... غير احلام مريضة بالغنى والمتاع ، والبحث المضطرب عن العزاء !) *

هكذا يصور المؤلف الذى لسنا (أكثر غيرة منه على هذا الدين) — كما يقول في رده — يصور أصحاب محمد بعد أحد : خمر — قمار — تمتع بالراقصات اليهوديات — أحلام مريضة بالغنى والمتاع *

ألا يجد هؤلاء الذين يكتبون عن صحابة الرسول بمثل هذا الأسلوب من يردعهم *

والحق انى لم أفهم وجه دفاعه بأن كتابه ليس كتاب سيرة
كما لم أفهم من قبل تعليق صديقنا المنفصال الشيخ عبد الرحيم
فودة حين كتب معتذرا عن (صاحب القالة) معلقا على مقالى
الأول بقوله (ذكر المؤلف فى مقدمة كتابه أنه لم يكتبه للمسلمين
كما ذكر ذلك لبعض من لاموه على ذلك من أصدقائه •

فهل معنى هذا ان الكتاب مادام لغير المسلمين يصح لمؤلفه
أن يحسوغ حقائق الاسلام كما يشاء ، وان يتجنى على القرآن
والرسول والصحابة حسبما أراد ؟

ويقول (صاحب القالة) : (فالمقال اهدار لآداب الدين
واستهتار متحد لقواعد الجدل) • ماشاء الله !!
المقال الذى يدافع عن القرآن ورسول الاسلام اهدار لآداب
الدين فما آداب الدين يا هذا ؟ •

أمن آداب الدين أن تأتى لتدفع عن نفسك ما دمغتك به من
كلمة محقة بهذا الهذر الذى لا يمكن أن يستسيغه ذوق سليم ؟ •

أمن آداب الدين أن تعتبر التفسير الصحيح لآية قرآنية
كريمة شتائم توجه الى من تجاهل هذه الآية ؟ أمن آداب الدين
أن تقول عن حمزة ما يفيد أنه كان يفجر بفاتنات اسرائيل —
بغيد اسلامه ، بل بعد أن أعز الله به الاسلام. — ؟

أمن آداب الدين أن تقول عن (كثير) من صحابة الرسول
ممن شهدوا بدرا وأهدا أنهم كانوا يحملون احلاما مريضة
بالغنى والمتاع ؟ •

أمن آداب الدين أن تصف من يرشدونك الى الحق بأنهم
(جهلاء) •

أمن آداب الدين أن تعتبر من يكتب في هذه المجلة بأسلوب
واضح لا لبس فيه ولا غموض انه يهزم ويلمز •

ولكن لأرفق بك قليلا • انك تقول : (بأى أهل من أصول
آداب الدين يبدأ مقاله عنى بقوله عن كتابى ألفه أحد العاملين
في الصحافة) طبعا لم يؤلك الا تجاهل اسمك الكريم وسأرشدك
الى أن هذا القول صدر عن أصل عظيم من أصول آداب الدين •

لقد تعودت — ياذاك — فى كل ما كتبت أن أذكر اسم المؤلف
أو صاحب المقال حين أثنى على كتابه أو مقاله ، وأن اطوى هذا
الاسم حينما يكون فى الكتاب أو المقال ما يؤخذ ديننا عليه ،
حتى لا أعرضه لقالة السوء من القراء فليس من قصدى أن أسىء
الى أحد ، وانما كل ما أعنى به أن اناقش الأفكار والآراء •

أرأيت — أيها الجهيد — المتأدب بآداب الدين عن أية نية
حسنة صدر عنى اغفالى لاسمك (الشهير) فيما كتبتة عن
كتابكم (العظيم) • المبرأ من كل عيب • الاسبب الصحابة
وأشياء أخرى) •

و (صاحب القالة) يرى أن ما فى المقال لا يستحق الرد
وهو أسلوب ألقناه ممن لا يستطيعون أن يقولوا شيئا يصلح
أن يكون ردا علميا صحيحا ، وقد تأيد هذا بمسلك الكاتب
المفحم ، فما فى كلمته شيء يمكن أن يوصف بأنه رد ، الكلمة
الوحيدة التى موه بها تبين أنه لا يدرك ما وراءها •

وكيف خلا المقال مما يستحق عناء الرد ، والمؤلف قد اهتزت له أعصابه ، وطار صوابه ، وادرك أن (شرف الكلمة) ليس في أن يقول كل من هب ودب ما شاء ، ولكن في أن يقول الإنسان فيما يستطيع أن يقوله فيه ، وإن الحرية الحقيقية ليست أن يتهم الكاتب على رسول الاسلام ، وعلى صحابته • في صورة التاريخ لهم ، بل ان يلتزم الأدب مع هؤلاء الذين رفعوا راية الاسلام ، وكانوا كما قال الرسول : (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) •

وكيف خلا المقال مما يستحق الرد وصاحب المقالة لم يستطع أن يرد حرفاً واحداً منه لا بما تستر به من الاستغلال الكاذب يظل ابن عباس ؟

ولا شك أنه وقع في تيهاء مظلمة حين قرأ المقال فلم يدر كيف يأخذ طريقه فراح يدعى أن المقال لا يستحق الرد •

وهل تظن — يا ذاك — ان شعرة في رأسى تتحرك حين تصيح بأن المقال لا يستحق عناء الرد ؟ •

انى لم اكتب المقال ، ولا كتبت يوماً مقالا من هذه المقالات التى أبنت فيها عن زيف كثير في الكتب المؤلفة في الدين ، وأنا لا انتظر من الذين كشفت عوارهم أن يرحبوا بما أكتب ، فليس بجديداً على أن تقول فيما اكتب ما ينتظر أن يقول مثلك فيه •

وإذا كنت تريد مما قلت أنك ارفع من أن ترد كما يفهم من مقدمة (قالئك) فانى أقول لك الملك العربى : (أطرق كراً أن النعام في القرى) •

و (صاحب القلعة) يزعم اننا رميناه في مقالنا (بالكفر) وهي دعوة لا دليل عليها ، فكلمة التكفير لم يخطها قلمي ، ولكن يبدو أنه مسكين لا يستطيع أن يفرق بين الانحراف والكفر ، وكل ما ورد في مقالى الأول عن كتابه قولى عن اسماعيل وأدهم أنه كان مسلماً ، ولكنى لست مبتدئاً بهذا وانما أنا ناقل ، فأدهم ألف كتاباً عنوانه : (لماذا أنا ملحد) فلم أتجاوز حكاية ما وصف به نفسه .

فنحن لم نكفر المؤلف ، ولا حاجة بنا لتكفيره ونحن نعرف رغبة هذه الكلمة ، وبذلك لم نحكم على ضميره — كما يزعم — وانما حكمنا على ما كتب ، فقلنا انه متابع للمستشرقين وانه انحراف في التفكير الدينى ، ولم نقل انه انحراف في العقيدة ، ولكن صاحب القلعة أراد أن يستثير شفقة القراء وأن يظهر بمظهر الحمل المظلوم ليهىء لنفسه الجوى الذى (يلقى) فيه مايريد أن (يلقيه) من ألفاظ لا تصدر عن انسان يحترم نفسه .

وقد نسى (سيادته) ان قراء هذه المجلة كلهم مسلمون وكلهم حريص على اسلامه ، وانهم يغارون على كتابهم المقدس ، وعلى سلفهم الصالح كما يغارون على أعراضهم ، وأنهم قرأوا ماكتبناه وبعضهم قرأ كتابه ، وكتب اليينا يلومنا على اننا رفعنا به في مقالنا .

وقد تبجح صاحب المقالة فاستند الى أن القرآن الكريم قص علينا قصصا وما دام قد فعل فلا بأس عليه أن يكتب سيرة الرسول في أسلوب قصصي وإذا كان الله قد نص فما يمنع الكاتب أن يقص - وما قد جرى اسمك على قلمنا يا سيدي الكاتب .

الله يقول : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » ، فهل فهمت كلمة (بالحق) هذه ؟ أما أنت فتقص علينا ، ما أشرت اليه في مقالين سابقين ، وفي هذه الكلمة من تهجم على القرآن ، وعلى مقام الرسول ومقام كبار صحابته ، فهل نقول لك : شتان لا والله ولكننا أردنا أن تبين لك خبطك وخلطك وأن نرشدك الى الأدب مع الله ، ومع الناس .

بقيت كلمة نحب أن نقولها لك من يحاول أن يحيد في الماء العكر ، ولنبين له أن بعض العبارات قد تأكلت من كثرة الترداد ، وإنها لم تعد تخيف أحدا .

فقد ألفنا (منهم) ان يرددوا كلمات يظنون انها تحميمهم ، ويقولون : من أين جاء أن في الاسلام طليقة من رجال الدين - لا كهنوت في الاسلام - لا مجامع كرادلة ، ولا حرمان ولا صكوك غفران .

ونسأل أطفال الكتاتيب ... واعتقد انهم يحسنون الجواب - هل من يرد مطاعن وجهت الى الاسلام ، ويحكم عليها بانها انحراف يكون (كاردينالا) ؟ أو من رجال (الكهنوت) ، وما دخل صكوك الغفران في مثل هذه المناقشات العلمية . سيجيئون

موفقين بأن كل ذلك هراء لا يراى به الا الاحتماء خلف هذه الألفاظ
ليقولوا ما يشاءون •

وانك — يا ذاك — تستعدى علينا جماعة المتحررين من القيم
الدينية ، ونحن لا نحفل بهؤلاء شيئا ، ومن قبلك ردد هذه
الكلمات أناس فما وجدوا من جمهرة المثقفين الا السخرية
والاستهزاء •

والكلام طويل وحديث الأفاعى طويل المدى كما يقول شاعرنا
شوقي وسأف ، ولكنى أوجهك الى أبيات من الشعر اذا كنت
سمعت بها فذاك ، والا فاسأل عنها أهل المعرفة ليتفول عليها
هذه الأبيات التى مطلعها •

قد تجر العقرب فى أرضنا
لا مرحبا بالعقرب التاجرة

ثم أخيرا لا أدري أتشكر تلك المجلة أم تنتقم عليها لأنها مكنت
الرامى من صفاء الثغرة كما يقول العرب — ولا تزال فى الزوايا
خبيا ، ولكن كما يقولون : ما استقصى كريم قط ، ونحن
منكون معك كرماء •

حُرِّيَةُ الْكَلِمَةِ فِي الْإِسْلَامِ

لا أعرف دينا سماويا ، ولا قانونا وضعيا ولا مذهبيا اجتماعيا ، ولا حزبا سياسيا ، لا أعرف شيئا من ذلك أعطى لاتباعه حرية مطلقة ، ولا أظن أنه سيجيء في المستقبل القريب أو البعيد لون من هذه الألوان الا أن تتجسم الفوضى ذاتها بشرا سويا وتدعو أتباعها الى شريعة من شرائعها ، وحينئذ سوف لا تتركهم يعيشون في العمران ، وانما ستخرجهم الى غابة من الغابات يمرحون فيها ويلعبون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام •

فلا يمكن أبدا أن نترك الحرية للناس في أى نظام كان ، يفعلون كل ما يشاءون ، ويقولون كل ما تجيش به خواطرهم ، حتى الوجودية التي دعت الفرد أن يتحرر من كل موروث من الاعتقادات والتقاليد والعادات ، وأن يتخلص من كل المبادئ والأحكام السابقة حتى هذه لم تترك له تلك الحرية مطلقة الزمام بغير هدف ولا غاية ، أى لا تجعل من تلك الحرية غاية في ذاتها فتقلب الى ما يشبه الفوضى •

نعم لا بدعو « سارتر » الى مثل هذه الحرية الشبيهة بالفوضى ، وانما يرتب على حرية الفرد نتيجة خطيرة وهى المسئولية وضرورة تحملها ، ثم الالتزام بالفعل والقول^(١) .

والدين الاسلامى وهو أقوم نظام عرفته الانسانية ، وأسمى شريعة جاء بها نبي مرسل ما كان له أن يعطى الناس حرية مطلقة — ولو أنه أعطاهم حرية واسعة — لأن مصلحة الجماعة — دائما — مقدمة عنده على مصلحة الفرد و (بعض الحرية فى التقيد وبعضها فى السلب ، وإذا تعارضت منفعة الفرد فى إطلاق الحرية ، ومنفعة الأمة فى حدها أو سلبها وجب نزع (ملكية) هذه الحرية ، ولو على الوجه الذى تؤخذ به دور الناس لتطبيق شارع^(٢) .

وقد ضرب الاسلام أحسن مثل للحرية التى منحها لأتباعه . بين فيه أن مصلحة الجماعة أولى بالرعاية ، وأحق بالاعتبار فقال صلى الله عليه وسلم : (مثل القائم على حدود الله ، والواقع كهمل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها . فكان الذين فى أسفلها إذا استنقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا) فلا بد إذن من الأخذ على اليد حين

(١) الانب ومذاهبه ص ٤٤ — ١٤٥ للدكتور محمد مندور .
(٢) تحت راية القرآن ص ٣٦٩ للمرحوم مصطفى صادق الرافعى .

يكون استعمال الحرية مهلكا للجميع ، وهذه — فيما أعتقد — قضية طبيعية لا يختلف فيها اثنان ، وفي الحديث — على ما قال نقات الشراح — تشبيه الواقعين في الحدود بمن أصابوا أسفل السفينة ، وتشبيه القائمين عليها وهم — الذين يحاؤون الحلال ويحرمون الحرام ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر — بمن يركبون أعلى السفينة . وفيه — أيضا — ارشاد القائمين على حدود الله ان يأخذوا على أيدي المعتدين عليها ، وألا يسمحوا للفاحشة أن تتشيع فيهم . ولا يأذنوا للفساد أن يستشري بينهم: فانهم ان لم يقوموا بما افترض الله عليهم من المحافظة على تعاليمه وألقوا حبل العابثين على غاربهم ، وتركوهم يخوضون الباطل خوضا عمهم الله بعذابه .

هذا من الناحية العامة . وأما من خصوص الكلمة ، فالاسلام — على مبدئه العام — لا يتركها للناس يقولونها بحرية مطلقة ، ما يجوز منها وما لا يجوز ، بل حدد لها حدودا . وشرع لها قوانين ، ونهى عن أنواع منها ، وتوعد عليها ، وبعض وعيده يشير الى العقاب الأخرى فقط . كما في نهيه عن اللغو من القول ، وعن ترديد الافك الذى يرمى به بعض المسلمين بعضا ، وجاء فى ذلك قوله تعالى : اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم^(١) وبعض وعيده أخرى ودنيوى ومن ذلك اذاعة قالة

(١) سورة النور ١٥ ، ١٦ .

السوء عن المسلمين وإشاعة الأكاذيب التي تضر بجماعاتهم ، أو تؤثر في سياستهم الحربية أو غيرها وقد جاء في هذا قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا^(١) » ، والمرجفون ناس كانوا يرجعون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون هزموا وقتلوا ومعنى لنغرينك بهم • لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوءهم ثم بأن تظطرهم الى طلب الجلاء عن المدينة •

وشبيه بهذا : الارجاف بعقائد الناس ومقدساتهم فان ذلك يوقع البلبلة في النفوس ، ولا وجه لما يقال أن حرية الرأي نور ولا يخاف النور الا الضعفاء لان ذلك حق يراد به باطل فليس كل مسلم قادر على أن يميز الخبيث من الطيب ، وكثير من الناس حتى المتعلمين منهم سريعا التأثير بما يسمعون أو يقرأون ومن واجب أولى الأمر أن يحموا عقائد الناس من أن يتلعب بها أهل الزينغ والافساد الذين يتتبعون المتشابه من الآيات كما قال تعالى : « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله^(٢) » قال الشاطبي في الاعتصام :

ومن اتباع التشابهات الأخذ بالمطلقات قبل النظر في مقدماتها • وبالعوميات هل لها مخصصات أولا ؟ وكذلك

(١) الأحزاب ٦٠ ، ٦١ •

(٢) آل عمران من الآية ٧ •

العكس ، بأن يكون النص مقيدا فيطلق أو خاصا فيعم بالرأى من غير دليل سواء ، فان هذا المسلك رمى في عملية واتباع للهوى في الدليل •

ومنه دعاوى أهل البدع على الأحاديث الصحيحة مناقضتها للقرآن ، ومناقضة بعضها بعضا وفساد معانيها أو مخالفتها للحقول^(١) •

والكلمة التي تضر الجماعة سواء كانت كلمة تطعن في الوطن أو في الدين أو في الخلق يجب أن تحبس وان يضرب على يد صاحبها ، سيما اذا كان رجلا لا يعنيه الا أن يقول فليس بصاحب هدف سام يريد أن يصل اليه ، وليس بصاحب مبدأ في الإصلاح حتى يقال انه انما يريد خير أمته وأى خير في أن ينشر على الناس — مثلا — ان القرآن يحتوى على أساطير ، أو أنه أنزل بالمعنى والصياغة من عند محمد غير بليلة الأفكار ، والتهجم على أقدم ما يعتز به المسلمون •

نفهم أن يفسح للرأى في الذبوع والنشر اذا كان من وراء نشره ما يفيد الجماعة فيحصرهم عماية يقعون فيها ، أو يرشدهم الى مسلك جهلوه ، أما أن يكون القصد من الرأى هو مجرد الهدم فلا أرى معنى لنشره لأن في ذلك مساعدة لقلب مريض على أن ينفث من دائه في صدور المعافين الأصحاء ، ومن عجب أنه ما أثيرت حرية الرأى ، أو حرية الكلمة الا حيث وقع شر أجمع

(١) ج ١ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ •

المعقلاء أصحاب الدين الصحيح على أنه شر ، وما رأينا قوما دافعوا عن حرية الرأي المطلقة الا وفي تاريخهم ما يؤحد عيهم من وجهة النظر الاسلامية ، ولماذا - فقط - لا بدور الجدل حول هذه المسألة الا حين يكون طعن يراه رجال الدين العارغون به مطعنا في دينهم ؟ ان الدين ينصرون الخارجين عن الدين يحجمون أن يقولوا كلمة واحدة حين يتعاقى امر بمعر الاسلام ، وانا - في الحقيقة - لا أريد أن أحكم هنا على أن هذا الرأي أو ذاك خروج على الدين لأن هذا ليس غرضي ، وانما الذي أريد أن أقوله اذا كان في الرأي ما يراه العلماء مضرا بالدين أو يراه الساسة مضرا بالوطن ، يجب أن يحال بينه وبين الذبوع ، ولا يعتبر هذا حجرا على الحرية ، لأن الحرية المطلقة كما قلت آنفا - لا تكون الا في الغاية أو كما يقول الراجعي - رحمه الله - : « ما هي قيمة حرية التفكير وأنت لاتجدها على أعظم شأنها وأكثر أسبابها وأوسع أشواطها الا في المعتوهين والموسوسين وألفافهم » .

وفي الاسلام نصوص كثيرة تدل على أنه ينبغي أن يحال بين الكلمة العلماء وبين الذبوع ، بل تدل على وجوب معاقبة صاحبها ، ذكر صاحب احدى المجلات ان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ذكر له رجل يقال له صبيغ فلما ظفر به جلده حتى سقطت عمامته ، قال السيد رشيد رضا معلقا على هذه القصة « وما ذكره المصنف هنا مروى بالمعنى ، وجملة الأمر انه - أي صبيغ - كان أول من وقع منه الشك وتشكيك الناس في مثالبه بالقرآن ابتغاء تأويله ، وكان قد كثر الداخلون في الاسلام من

الشعوب المختلفة فخشي عمر الفتنة على الجاهلين غأدبه وأبعده
إلى البصرة ، ونهى الناس عن مجالسته ومكالمته (١) » .

وروى صاحب هذه المجلة - أيضا - قصة غيلان القدرى مع
عمر بن عبد العزيز ، وإن عمر أرسل إليه فلما جاءه ناظره
وأرشده ثم قال له ما تقول ، فقال غيلان : قد كنت أعمى
فبصرتنى وأسم فأسمعتنى وضالاً فهديتنى . ثم أمسك عن
الكلام فى القدر ، فلما مات عمر تكلم فى القدر فبعث إليه
هشام بن عبد الملك فقطع يده ثم تكلم فى القدر فصلبه (٢) .

وقد روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما أن أعمى كانت له
أم ولد ، تشتم النبى صلى الله عليه وسلم وتقع فيه فينهاها
فلا تنتهى ، فلما كان ذات ليلة أخذ المولى فجعله فى بطنها
واتكأ عليه فقتلها ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ،
فقال : أشهدوا فإن دمها هدر قال صاحب (بلوغ المرام) فى
هذا الحديث : ورواته ثقات .

أما قتل المرتد فقد أجمع عليه علماء المسلمين . قال الصنعانى
صاحب سبل السلام بعد أن روى حديثاً عن معاذ بن جبل :
الحديث دليل على أنه يجب قتل المرتد وهو اجماع .

(١) الاعتصام ج ١ ص ٩٣ ، ٩٤ (هامش) .
(٢) ج ١ ص ٦٦ .

وذكر حديث ابن مسعود - رضى الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بأحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة ، قال صاحب بلوغ المرام فى الحديث : متفق عليه ، أى رواه البخارى ومسلم ، وفسر صاحب سبل السلام التارك لدينه بأنه كل مرتد عن الاسلام بأى ردة كانت فيقتل أن لم يرجع الى الاسلام ، وفسر المفارق للجماعة • بأنه كل خارج عن الجماعة ببدعة أو بغير أو غيرهما كالخوارج اذا قاتلوا وأفسدوا فى الأرض •

ومن الأحاديث فى هذا الموضوع قوله صلى الله عليه وسلم ۞
من بدل دينه فاقتلوه ، وقد رواه البخارى وأصحاب السنن •

وممن حكى الاجماع على قتل المرتد ابن عبد البر فى التمهيد فى الكلام على حديث (من بدل دينه فاقتلوه) قال : وفقه الحديث أن من ارتد عن دينه حل دمه ، وضربت عقبة والأمة مجمعة على ذلك •

وصاحب المغنى من فقهاء الحنابلة قال : وأجمع أهل العلم على وجوب قتل المرتد ، وروى ذلك عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، ومعاذ وأبى موسى وخالد وغيرهم ، فلم ينكر ذلك فكان أجماعاً •

وقال ابن دقيق العيد في شرح العمدة : فراق الرجل بالردة
عن دينه سبب لباحة دمه بالاجماع •

وقد اختلفت الفقهاء في المرتدة ، فقال الأحناف : لا تقتل ،
وقال غيرهم تقتل ، وجاء في نيل الأوطار حديث عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل لما أرسله الى اليمن : ايما
رجل ارتد عن الاسلام فادعه فان عاد والا فاضرب عنقه ،
وأيما امرأة ارتدت عن الاسلام فادعها فان عادت والا فاضرب
عنقها • قال الحافظ : وسنده حسن ، وهو نص في موضوع
النزاع فيجب المصير اليه^(١) •

وقد قتل أبو بكر الصديق في خلافته امرأة ارتدت والصحابة
متوافرون فلم ينكر عليه أحد ذلك •

ومن عجب انى قرأت لاحد الكاتبين كلمة في صحيفة يومية
جاء فيها بالحرف الواحد : (فان ارتدت الزوجة هي الأخرى
عن الاسلام فالاجماع بين علماء الاسلام على تركها حرة
مختارة ، وعدم التعرض لها بأى سوء فضلا عن قتلها) والكاتب
قد نقل في كلمته عن كتاب (نيل الأوطار) فبدهى أن يكون
اطلع على هذا الخلاف فحكايته الاجماع على عدم قتل المرتدة
لا يحمل الا على الجرأة البالغة ، والخيانة العلمية ، فكيف نأمن

(١) ج ٧ ص ٣٩٣ •

أمثال هذا على رأى يذيعه أو كلمة يقولها وهو يكذب في النقل في موضوع يعلم أن الحديث فيه لن يمر دون درس وتمحيص.

وقد تمسك هذا الكاتب في عدم قتل المرتد — كما تمسك كاتب آخر قبله — برأى نسب الى ابراهيم النخعي ، وهذا لم يقل بعدم قتل المرتد صراحة ، وانما حكى رأيه عند استتابة المرتد ، وقد اختلف العلماء فيه ، فقليل يستتاب فان تاب وألا قتل وهو قول الجمهور ، وقيل يجب قتله في الحال واليه ذهب الحسن وطاووس . قالوا : وانما تشرع الاستتابة لن خرج عن الاسلام لا عن بصيرة ، فأما من خرج عن بصيرة فلا .

واختلف القائلون بالاستتابة ، هل يكتفى بالمرة أو لا بد من ثلاث ، وهل الثلاث في مجلس ، أو في يوم ، أو في ثلاثة أيام ؟ ونقل ابن بطل عن أمير المؤمنين على — رضى الله عنه — أنه يستتاب شهرا ، وعن النخعي أنه يستتاب أبدا^(١) فالذى حكى عن النخعي هو أن المرتد يستتاب أبدا ، قاله عالم جليل في مقال نشرته احدى المجلات : « ففهم من ظاهر كلامه أنه يرى أن الرجل المرتد لا يقتل ، وقد اغتر بهذا الظاهر صاحب المعنى فقال ، بعد أن حكى الاجماع كما سبق — : وقال النخعي يستتاب أبدا ، وهذا يفخى الى أنه لا يقتل أبدا وهو مخالف للسنة والاجماع اهـ . وكذلك اغتر به ابن حزم فقال في المحلى : (وقالت طائفة يستتاب أبدا ولا يقتل ، ورد عليه بقوله : ولو

(١) ميل الاوطار ج ٧ ص ١٦٥ .

صح هذا لبطل الجهاد جملة ، لأن الدعاء كان يلزم أبدا مكررا بلا نهاية » وهذا قول لا يقوله مسلم أصلا ، وليس دعاء المرتد — وهو أحد الكفار — بأوجب من دعاء غيره من الكفار الحربيين ، فسقط هذا القول . ١٠ هـ .

والتحقيق ان هذا الظاهر من كلام النخعي غير مراد ، لأنه لا معنى للاستتابة الدائمة اذا لم يترتب على عدم الاجابة شيء فيتعين حمله على أنه يستتاب كلما رجع الى الردة ، ولذلك قال الحافظ بن حجر في فتح الباري : وعن النخعي يستتاب أبدا ، كذا نقل عنه ، والتحقيق أنه غيمن تكررت منه الردة ١٠ هـ .

وقد روى البيهقي في السنن الكبرى بسنده هذا المعنى عن النخعي أي أنه قال : المرتد يستتاب كلما رجع ، والدليل الصحيح الواضح على مراد النخعي ما ذكره البخاري في صحيحه تعليقا بصيغة الجزم فقال :

وقال ابن عمر والزهرني وابراهيم أي النخعي : تقتل المرتدة^(١) ١٠ هـ .

ولا شك أن كثيرين من المثقفين قد دهشوا من جرأة هذا الكاتب ومن جهله معا ، فقد ذكر (ان الفتوى بقتل المرتد

(١) من بحث كتبه المرحوم الشيخ عيسى منون عضو جماعة كبار العلماء وشيخ كلية الشريعة سابقا ، وقد رد فيه على كل ما كتبه هذا الكاتب في الصحيفة اليومية ، لأنه في الحقيقة تريد حرق ليبحث كان نشر قبل ذلك .

تسربت الى فقهاء المسلمين عن طريق تقاليد الدولة البيزنطية المسيحية التي تأثر بها المسلمون وفقهاؤهم في العصر العباسي وقد كانت هذه التقاليد وما زالت تقضى بقتل المسيحي اذا هو غير دينه كما حقق ذلك العلامة (آدم متر) الله . الله . غفهاء المسلمين قلدوا المسيحية في غتاواها ، فلهنحرق اذن كتب الفقه كلها لأن الذين ألفوها كانوا غير أمناء وكانوا مغفلين ، ألم يقل ذلك (آدم متر) ذلك المستشرق العلامة ، ومن ذا بعد آدم متر ؟

وذكر الكاتب أن أبا بكر لم يقاتل المرتدين الا بعد أن (هجموا بالسلاح على المدينة المنورة) وأنا — والله — أظن ان المحققين من علماء التاريخ الاسلامي يجهلون هذه الحقيقة : هجوم المرتدين على المدينة ! : وان ابا بكر قاتلهم لذلك ، كأنه لم يقل : والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه ،

والقرآن لم يذكر قتل المرتد ، ولذلك فينبغي الا يقتل وهذه الفتوى من الكاتب على حد فتوى الشاعر الاندلسي الذي أخذ الى القاضي والخمر يفوج من قمه فقال :

قرأت كتاب الله تسعين مرة

فلم أر فيه للشراب حدودا

فعلى هذه الطريقة المخمورة نأخذ ديننا ، فما دام القرآن لم يذكر عدد الصلوات فلا نظام للصلاة ، وما دام القرآن

لم يذكر رجم الزانى المحصن ولا تغريب الزانى غير المحصن ،
فلا رجم ولا تغريب ، ولا معنى لما جاء فى القرآن (وما آتاكم
الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) • و (انزلنا اليك
الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) •

بل ما لهؤلاء العلماء الاعلام — وهؤلاء العالمات الاعلام أيضا
ونصوص القرآن ، ألم تقل واحدة منهن فى مجلة اسبوعية ان
المرأة قد أخذت كل حقوقها فلا معنى لأن ينقص ميراثها عن
ميراث الرجل ، ألم يقل عالم فى بعض كتبه ان ضرب المرأة
وحشية ، ألم يقل قدوة هؤلاء جميعا • « للتوراة ان تحدثنا
عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن
ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات
وجودهما التاريخى » (١) ؟ •

(وبعد) فان الاسلام وضع قاعدة ذهبية ياليت كل مسلم
يضعها أمام عينيه وذلك حيث يقول صلى الله عليه وسلم :
(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت) •

(١) الشعر الجاهلى ص ٢٦ للدكتور طه حسين •

مطابع الامرام التجارية
رقم الانداع بدار الكتب
٢٠٢٦ / ١٦٧٥

يسر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية أن يزود
المكتبة الإسلامية والقاهرة العرب بالمؤلفات
الإسلامية الحقة لأول مرة عن تدار المطبوعات
بأشهر كبار أئمة الجامعات والمجتمعات



SECRET

1950 مئة من الفم الكه

٦٢٤ صفحة من القطع الكبير - ١٥٠

٦٣٣ صفحة من القطع الكبير

٣ - تاريخ التوقيع: ١٢/١٢/٢٠٢٠

المقابلة

30

من يروني